

مقدمة

عشية الذكرى الخمسين للنكبة و إقامة (إسرائيل) على أرض فلسطين و تشريد أهلها ، و في هذه الظروف التي تشهد فيها الهجمة الاستعمارية الصهيونية على الأمة العربية في مختلف بقاع وطنها بعامة و في فلسطين بخاصة متمثلة في الهجمات اليومية على شعبنا العربي الفلسطيني سواء في فلسطين المحتلة أو في منفاها الإجباري . في هذه الظروف يظلّ جوهر القضية تجربة مأساوية عاشها و يعيشها هذا الشعب نتيجة عمليات التخريب المبرمجة و نزع المقومات الأساسية للهوية الفلسطينية من خلال حركة استيطان يهودية ، في ظلّ سياسات استعمارية غربية مؤيدة لها أو خاضعة لابتزازها . إنها تجربة تصدّي شعب أعزل لمكائد القوى العداوة و (الصديقة) على حد سواء ؛ إذ عاش الفلسطيني الذي بقي على تراب وطنه حياة النفي الداخلي و الاغتراب ، بينما تاه من أرغم على المنفى الاجباري في الأحرار القائلة للسياسات العربية حتى آل الوضع إلى ما هو عليه .

فقد جُيرت فلسطين المعروفة بحدودها الجغرافية - أو معظمها - في سنة 1948 إلى ما يسمّى اليوم بـ (إسرائيل) ذات الحدود الغامضة غير المرسومة ، القابلة على الدوام للتوسّع باتجاه حدود "إسرائيل التوراتية!" من النيل إلى الفرات ، في حين بقيت فلسطين التاريخ و الهوية و الصراع تعيش قوية في ضمير سبعة ملايين فلسطيني نثرتهم المأساة على طول الكرة الأرضية و عرضها بعد أن انتزعت منهم أرضهم و ممتلكاتهم انتزاعاً باعتراف موشي ديان لصحيفة هآرتس في 1969/4/4 : "لقد قدمنا إلى هذه البلاد (فلسطين) ، و كانت مأهولة بالعرب لنقيم دولة يهودية ... و ليس ثمة مكان على هذه الأرض لم يقطنه في السابق سكان عرب!" و رغم إدراكها للحقيقة فقد ظلت (إسرائيل) و كثير من الحكومات الغربية تتنكر بعناد للوجود التاريخي المتواصل و الحق الترابي الثابت لثمانية ملايين من المسلمين و المسيحيين العرب الذين تعرفهم (إسرائيل) و تلك الحكومات بالفلسطينيين .

هكذا حاولت (إسرائيل) القضاء على الوجود الفلسطيني بمختلف مظاهره البشرية و الاجتماعية و الثقافية ، فحجرت على التعليم و الثقافة العربية في الوطن المحتل . و راحت في المنفى تطارد رجال الفكر الفلسطينيين و تغتالهم ، و تعتدي على المؤسسات الثقافية الفلسطينية بالصواريخ و الطرود الملوغمة و تنهب محتوياتها ، كما حدث لمركز الأبحاث الفلسطينية أثناء اجتياح الجيش (الإسرائيلي) لبيروت في صيف 1982 .

و على الرغم من إنكار القوى المسؤولة مباشرة عن المأساة (بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية و "إسرائيل") للحقوق الفلسطينية فقد سار الشعب الفلسطيني بخطى ثابتة نحو تأكيد هويته في مجالات عدة بصورة أكثر وضوحاً من أيّ وقت مضى في وجه السياسات التي تريد بالتطبيع التدريجي - السلمي حيناً و المفروض بالقوة أحياناً - لعلاقات الأنظمة أو الحكومات العربية بـ (إسرائيل) تقوية نفوذها السياسي القائم في المنطقة على تجاهل الحق الفلسطيني و تقوية القدرات العدوانية لـ (إسرائيل) . و ليس أدلّ على ذلك من مسلسل الهيمنة الذي بدأ بكامب ديفيد و وصل إلى أوسلو التي لن تعطي - في نهاية المطاف - الشعب الفلسطيني أكثر من 7 % من أرض فلسطين على شكل كيان هزيل لا يفي بأدنى تطلعاته إلى الحرية و تقرير المصير .

و في إطار مسلسل التطبيع انعقد المؤتمر الصهيوني - بموافقة و دعوة و افتتاح رسمي - في الرباط من 13 - 14 مايو 1984 و ثلته دورات ما يسمى "بالمؤتمر الاقتصادي لشمال أفريقيا و الشرق الأوسط" . و بهذا تحققت مقولات برنامج حزب العمل الصهيوني الدعائية في : "خاطبوا العالم على أنكم المظلومون ... و تجاهلوا تماماً السكان الأصليين!!" حتى وجد اغتصاب فلسطين قبولاً لدى الغرب الذي اعتبر الاستقرار في المنطقة العربية يقوم على دعامتين : "إسرائيل يهودية و لبنان مسيحي و ما عداهما ليس إلا شرقاً عربياً مسلماً لا أمل يرجى منه!" و ليس أدلّ على هذا التأييد من تستر الغرب على التاريخ الإجرامي للصهيونية .

فقد نجحت الصهيونية و الغرب بالفعل في تشويه صورة كل ما هو عربي و كل ما هو مسلم ، حتى في أحلك ظروف اضطهادهما ؛ إذ ظلت الإذاعة المرئية البريطانية تنتشر على ما وصلها من مواد إعلامية عن مذبحه صبرا و شاتيلا ، و عندما لم تستطع الاستمرار في تضليلها المشاهدين عرضت شريطاً يحكي قصة عصابة ترتدي الكوفية العربية و تقوم بخطف الأفارقة و بيعهم عبداً في منطقة الخليج العربي . أما "البابيس" ، أكثر صحف إسبانيا اليومية انتشاراً ، فبعد أسبوع واحد من المذبحة نفسها نشرت في صفحة تمضية أوقات الفراغ مريعاً للكلمات المتقاطعة يراد البحث فيه عن كلمة مكونة من خمسة حروف و مفتاحها فراغ يقع بين كلمتي "العرب اليهود" ليجد اللاعب نفسه أمام كلمة واحدة لا بديل لها : "odian" وتعني "يكرهون" !! .

كلّ هذا يندرج في إطار التأثير الدعائي الصهيوني الذي يجد طريقه إلى العامة بسبب جهلها الأمور ، و إلى غيرها بسبب عدااء الغرب المزمّن و غير المبرر للعرب و المسلمين و حضارتهم و دينهم ، إلى درجة التشكيك في قدراتهم على الإبداع و العطاء ، "إذ إن العالم الشرقي لا مكان له في الغرب ، و أكثر ما يقوم به هناك هو دور المعرّب و المخبر ، تاركاً دور البحث و التحري إلى سيده الغربي" [1] .

و منذ خطاب ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1974 لم يعد الحلّ العسكري هو الحل الوحيد المقبول لدى الثورة الفلسطينية ، فدخلت ساحة الصراع السياسي بعد قرن كامل من دخول الصهيونية إليها . و في الحقل السياسي حقّق الفلسطينيون العديد من الإنجازات فاعترفت بالمنظمة أكثر من مئة دولة و أصبح العالم أكثر تقبلاً من أيّ وقت مضى لفكرة استعادة الشعب الفلسطيني لجزء من حقوقه الوطنية و بدأت شرائح من الرأي العام الغربي تكتشف المغالطة في منطق "اعتبار اليهودي الأمريكي الأصل المولود في شيكاغو (إسرائيلياً) يتمتع بحق المواطنة و العيش في فلسطين ، بينما الفلسطيني المولود في يافا أو القدس أو عكا لاجئاً لا حقّ له في العيش على أرض فلسطين" . و بالطبع فقد امتد هذا التفهم الجزئي للحق الفلسطيني إلى بعض رجال الفكر و السياسة و الأدب حتى لم يستطع اليهودي الأرجنتيني جاكوبو تيمرمان في كتابه "أطول الحروب" تجاهل حقيقة أن ليس بالإمكان إبادة الشعب الفلسطيني و أن كلّ آلة الحرب العسكرية (الإسرائيلية) بكلّ جبروتها و قسوتها تظلّ عاجزة أمام هذه المهمة . و أن ليس ثمة بديل عن الدولة الفلسطينية" .

أما الغرب الذي أوجد المأساة فعلاقته بفلسطين قديمة جداً لكنها راحت تشتد دموية منذ الحروب الصليبية و من ثمة الغزو الاستعماري الغربي الذي رفع المأساة إلى درجة الغليان بغرز (إسرائيل) في خاصرة الوطن العربي ، إذ جدّدت بريطانيا العظمى في الثلاثينات من هذا القرن سبعين ألف جندي لإخماد ثورة الشعب الفلسطيني الذي لم يكن يتجاوز عدد سكانه الأربعمائة ألف نسمة ؛ أي بواقع جندي لكلّ عشرة مواطنين حتى يتسنى لها تنفيذ مخططاتها الاستعمارية .

أما الاتصال الفلسطيني بإسبانيا فيعود بجذوره إلى أولئك الكنعانيين الذين أبحروا بسفنهم إلى الشواطئ الإسبانية و أسسوا عليها مدينة قادش الأندلسية ، و عرفهم العالم باسم الفينيقيين . و في وقت لاحق مثلت فلسطين جزءاً من معايشة عربية إسبانية دامت ثمانية قرون في إسبانيا المسلمة أو الأندلس ؛ حيث نزل جند فلسطين الفاتحون بلدة شريش الأندلسية و أعطوها اسم بلادهم . كما ارتبطت إسبانيا المسيحية ارتباطاً روحياً قوياً بمهد المسيح و رسالته ، فتوافدت أفواج الحجيج و الرحالة على فلسطين تاركة شاهداً حياً تحفظ به المكتبات الإسبانية و العالمية على عروبة هذا القطر و طابعه الإسلامي .

أما في أمريكا اللاتينية فبتجاوز رواية وصول المصريين القدماء إلى المكسيك و رواية وصول الفينيقيين إلى سواحل أمريكا على المحيط الهادي ، فقد هاجر في القرن السادس عشر إلى أمريكا اللاتينية ثلاثة ملايين عربي أندلسي لم يثق ملوك إسبانيا الكاثوليكية في تنصرهم و عملوا في المناجم و المزارع . و في أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين هاجر عددٌ كبير من أهالي بلاد الشام إلى أمريكا اللاتينية فراراً من سوء الأوضاع و عرفوا هناك بالأتر ك . أما الفلسطينيون الذين أجبرتهم المأساة على اللوذ بتلك الديار القابعة خلف محيط الظلمات فيبلغ عددهم النصف مليون نسمة منهم حوالي ربع مليون نسمة في تشيلي وحدها و تتوزّع البقية على أقطار أخرى مثل كولمبيا و الباراغواي و البيرو و الأرجنتين و كوستاريكا و هندوراس ... الخ و كلهم يرنون إلى الوطن السليب أو كما يقول الشاعر الكولمبي ديوميدس داتا :

"شردوا من أوطانهم
فندروا أبناءهم فدائين فلسطينيين"

فالواقع الدامي الذي تعيشه القارة الصابرة في ظلّ الاستغلال الاستعماري و التخريب الصهيوني جعلها ترتبط جرحاً و هدفاً بفلسطين .
و بالمقابل فحضور إسبانيا المعاصرة في الفكر العربي بعامة و الفكر الفلسطيني بخاصة ظلّ على شحوبه — بسبب وصوله وصولاً غير مباشر عبر لغات غير الإسبانية — أقوى من حضور فلسطين المعاصرة في الفكر الإسباني ، إذ ظلت صورة إسبانيا في الفكر العربي ، و الفلسطيني منه بخاصة مضمخة بشذى الأندلس و تضحيات أعلام الأدب و الفكر و الفن الذين قتلتهم الحرب الأهلية فيها مثل غرثية لوركا و ميغل إرنانديث أو سحقمه المنفى مثل رفائيل البيرتي و بابلو بيكاسو . فهو حضور إيجابي تعمّم عن جهل بواقع إسبانيا المعاصرة ليُشمل كلّ ما هو إسباني بما في ذلك أولئك الذين وقعوا تحت تأثير الصهيونية مثل سلفادور دالي الذي أساء في لوحاته "إمراة عربية" و "العرب" و "حلم محمد" للعروبة و الإسلام .

و على أيّ حال فالوعي بالقضية الفلسطينية — بغض النظر عن إيجابية الموقف أو سلبيته منها — في إسبانيا و أمريكا اللاتينية اليوم هو أقوى مما كان عليه في أيّ وقت مضى ، و هو وعي يقود إلى الاهتمام بالموضوع الفلسطيني المعاصر اهتماماً ينبع من :

- 1— الوعي بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .
- 2— معاشة ظروف القهر و النفي و التسلط الاستعماري التي يعيشها الشعب الفلسطيني .
- 3— ضيق العالم بجرائم الصهيونية و عنصريتها .
- 4 — الطابع الشرقي المقدّس لفلسطين .

و يبقى لي أن أذكر أنني قد اقتصرْتُ في جمع هذه المادة على النصوص المكتوبة باللغة الإسبانية و تجاهلتُ ما كُتِب بلغات أخرى في أمريكا اللاتينية مثل البرتغالية و الإنجليزية و الفرنسية و في إسبانيا مثل البشكنسية و القطلونية و الجالقية لأنه جدّ قليل التمثيل في عملنا هذا الذي أردنا به التنبيه على هذا الحضور بما وصلنا إليه من نصوص ، هي بالفعل نموذج لظاهرة موجودة يمكن تتبّعها و التوسع في دراستها ؛ هذا مع إدراكنا لصعوبة المهمة .

الشاعر التشيلي محفوظ مصيص

عبر فلسطين في أمريكا اللاتينية

1

محفوظ الشاعر المبدع

الشاعر محفوظ مصيص ، التشيلي الجنسية و المولد ، الفلسطيني الأصل ، الإنسان المقاوم لكلّ ظلم و جبروت في مواقفه و شعره ؛ وُلد سنة 1916 و بدأ الكتابة في فترة مبكرة من حياته . كان عضواً نشطاً بين الكتاب التشيليين فشغل خلال الستينات منصب رئيس جمعية الكتاب في بلاده ، و مدير مجلة "بوليمكا" ، و قد نشر أعمالاً منها : سبعة دواوين شعرية و مجموعة قصصية و كتاباً نثرياً و دراسة نقدية .

و قد تميّز شعر محفوظ بأسلوبه الفريد و باستخدامه الموضوعات غير المألوفة ، الأمر الذي جعل الجدل النقديّ يدور شديداً و عنيفاً حول كذا كتاب يصدر له ؛ إذ كان القراء و النقاد ينقسمون بين مؤيّد و رافض لهذه الطريقة المحفوظية في الكتابة ، إلا أن كلى الفريقين كانا يتفقان في النهاية على أنها ظاهرة أدبية مذهشة تستحق التحليل و الدراسة .

لقد أجمع نقاد شعره على أنه يعيش الواقع الإنساني المعدّب بكلّ جوارحه ، الأمر الذي جعل روح التمزّق الإنساني و العذاب البشري المر يظهران بوضوح في شعره . و هو بهذا ، إلى جانب بابلو نيرودا يمثل أقوى تيارات الخلق الشعري تحريضاً في تشيلي ؛ هذا إلى جانب العمق و الأصالة و الطريقة الخاصة و

الكثافة الأسلوبية التي يَتميّز بها شعره . و هو — كما يقول بدرو بابلو باريديس — كشاعر يزداد كلّ يوم أصالة في أسلوبه و نغمته ، الأمر الذي جعله مفخرة تشيلي .
و الحقيقة أن ازدواجية الانتماء و الأصل عند محفوظ قد أثرت تأثيراً قوياً في شعره ؛ فقد جمع بين حضارات الشرق الغابرة ، بعلمها ومعتقداتها ، وثقافات الانديز القديمة بأساطيرها و خيالها ؛ وعن هذا الجمع تمخضت فلسفته الشعرية في نظرتها للمفاهيم الحياتية و فلسفتها الأخلاقية كالموت و الحياة و الحب ... الخ ، فجاء شعره عذباً صادقاً و مفعماً بالحيوية كأساطير الأنديز القديمة ، تهب عليه ريح جنائزية من مصر القديمة فتضع الحد الذي يفصل بين الانهيار و الأمل في شعره .
إنها ازدواجية حاضرة حضوراً قوياً في ديوانه "مرثية و اراها التراب" ، حيث الكلب و هو أكثر البهائم ظهوراً في شعر محفوظ مصيص يتقمّص في هذا الديوان صورة الإله "أنوبيس" ذي الرأس الكلبية يزن أرواح الموتى .

و في شعر محفوظ نجد أيضاً الملائكة حاضرة يستخدمها استخداماً خاصاً ؛ و إن كان "بليك" قد قال : "إن كلّ ملك مرعب" ، فإن شاعرنا — كما تقول خيسوفينا بلا — يحمل حدود الرعب الملائكي إلى أبعد مما لا يستطيع أي شاعر "ملائكي" متطرف في استخدامه هذا العنصر كدائتي أو بودليير أو بوي مثلاً أن يحملها . و ترى الناقدة نفسها أن الموت في شعر محفوظ مصيص هو تجربة حية ، مرعبة و غريبة في ظاهرها و تسبق وقتها ؛ حيث يصر الشاعر على الفصل بين الموت و الحياة فينتهي به الأمر إلى تجشم الإثنيين معاً ، دون أن يخلط بينهما ؛ حيث تتلخّص هذه التجربة في قول الشاعر نفسه : إن كلّ ما نراه و ما نحبه يعيش و يموت و نحن ننظر إليه" . باختصار ، فإننا نشهد في شعر محفوظ مصيص "ولادة موت جديد" .

و شعر محفوظ مصيص على جودته يكسوه ضباب لزج تتلألأ من تحته الاستعارات الساحرة . أما لغته فوصفها النقاد لكثافتها و تماسكها و عمقها "بلغة النفط" أو "لغة السبج" التي قلما يتمكن القاريء العادي من سبر أغوارها و الكشف عن إبداعيتها .

و حسب صحيفة أونيبيرسال الكركاسية (فنزويلا) فإن محفوظ شاعر ذو قيمة كبيرة لها قدسيته و يمثل أكثر عمليات الخلق الشعري ثورية في تشيلي ، حيث إن أحداً في هذا البلد — كما يقول بيرناردو كروت — لا يكتب بالصورة المميزة المركزة ، الرائعة التي يكتب بها محفوظ أعماله .
و بالرغم من هذه الغشاوة التي تظهر في عناوين كتبه مثل "ترنمات الديك الأسود" و "أساطير المسيح الأسود" و "سفر النجوم المطفأة" و "وحوش الألم" فإن شمساً تبدو من وراء تلك الغشاوة ساطعة ما تلبث — إذا أمعنا النظر في حقيقتها — أن تمزق تلك الغشاوة الجنائزية كاشفة عن روح ثورة منمرّدة تنظر إلى الأمور نظرة واقعية و تأملية تسمح برؤية المستقبل رؤية حقيقية .

"في هذه الأرض التي تسحقها الألام و المجاعة .

محتومة تظهر في السماء

علامة الثورة فوق السم و الشرور

فهي عبور من خلال الموت

و صيحة عبر جدار الصوت" .

من هذا الموقف انطلق محفوظ مصيص يكتب شعره المقاوم ، و هو بمنفاه في كراكاس بعد أن شرّدت السلطات الطاغية من وطنه . و من منفاه راح ينشد مؤيداً كلّ قضايا الحرية العادلة في العالم ، داعياً أصحابها إلى تضيق الخناق على الظالمين و المعتدين ؛ و هنا لم ينسَ أكثر قضايا الإنسانية المعاصرة عدالة فتبوّأت عنده "فلسطين في القلب" مكانها .

2- فلسطين في القلب

إلى فدائيي الثورة الفلسطينية

عند قدم هذه السلسلة الجبلية القاسية البيضاء

أقف عارياً أنا

محفوظ مصيص

عبير فلسطين في القارة الأمريكية

مواطن من العالم الثالث
من العين الثالثة
من هذا القمر الفارغ
كمهر أرفع صوتي في وجه السماء المكفهرة
لن أبكيك أرض أبي العتيقة
لن أبكي شهداءك أو
نساءك المهتوك عرضهن الملقبات
إلى الجمّة السوداء ،
أو أطفالك المشرّبة إلى الشمس وجوههم ،
أطفالك الذين قلبي يعيدهم ،
لن أبكي ذورك ذات الحجارة الأزلية
المسكونة بالغربان ،
المجلوبة من كلّ الأمم ،
غربان عيونها زرق ،
أو خضر أو صفر
أو حمر كشقائق نعمان دموية .
لن أبكي مسنّيك الذين يغنّون تحت الأخياش ،
سماء هجرتها العصافيرُ
ولا صلواتك لإله مات في
الحجز منذ زمن بعيد
الدمع وحده
يلعق الحجرَ ! ينزلق
كالموت ،
و يسقط سقوط الماء على السيّف
المجرّد
أغنية العين الناضبة ! العين التي لا رطوبة فيها ، و أشربُ
إبريق دموعي في وحدتي ، عندما
لا يستطيع حتى الموت رؤيتي ، و أنتِ ، و أنتِ ، زوجي ، تظنين
أنّي نائمٌ
قبضة تحدّ . عرق و حمم بركانية ! ذلك ما أريد .
أخرجوا ،
أبطال الشبّوط و الحفر الباردة !
في أيديكم المفاتيح ،
أخرجوا النمرَ من صوانكم !
عودوا إلى المهد الذي تحابّ فيه أبائكم
و فيه مات الجدُّ ، في آخر أمسية ، مستمعاً جلبة الحظائر
و ثغاءها الزبرجدي .
هم أصحاب غيتو أوروبا ! الذين
في الأفران حرقوا ، المنبوذون كقرطاس إثر العاصفة ،
المسلوخون عن جلودهم ، أو
المهروسون مع الحجارة ،
المسمّرون ، الممزّقون إرباً ،
المزّهقة أرواحهم في غرف الغاز
في أوستشوتز
المجفّون ،
الذين لم يتعلّموا الدرس ،
من توينبي العجوز ، و أرسلوا
كلايهم المسعورة إلى فلسطين
و أسراب ضيرائهم في ثياب أحبار

أو أسماك قرش حزينة
أو أرسلوا الجنرال الذي ، بعين واحدة ، صلدة ، كالماء المتجمّد ،
ينظر إلى أرضاته أو جلّاديه .
إلى جديانه الشعارية .

هرعوا

"ككيس سليكا" و ربح عاتية .

كعواء مجنون في الوهاد ، حرّق

الأرض الطيبة ،

أشجار الليمون ترتجف

كثدي أرملة بها الذكريات قد عصفت ؛

أشجار رمّانك

التي لا تنتهي ، و صناعاتك التقليدية

البسيطة ، عندما كنت تشغلين الصدف ،

أو تنقشين على خشب الزيتون الخالد .

بقروا بطن دير ياسين و استعرضوا

فتياتك عاريات

و شربوا بين أفخاذهن الندبة

كالشمعدان حرقوا

رموزك ، قذفوك بالنابالم و الزيت الأسود ،

و شتتوا شمل أبنائك يحملون على أكتافهم

آخر ثقب مسمار في الذكرة .

و لكن هناك بعيداً

في المخيمات

في كلّ مخضّل و ترايبي في الأحشاء ، و أعمى

في محاريب الرّعب أو بهزال الجسوم

التي في كلّ يوم تموت ،

بين مراييل و جردان مبتلة ،

بين أحلام جنماء و دخان و حبال و ملابس

موت .

بين القطران و الحثالة

بين أشياء

كثيرة نسيتهها الأرض ،

انفجرت ، فجأة ، قنبلة دم : مائة

ألف رأس كبرد قرمزي ،

بكلمة عدل محفورة في

كلّ عين ، و كل قلب يائس ،

من كلّ

شبوط إلى قلب الليل فدائيّ قفّر ،

قلب الليل الرهيب السابق لكلّ تاريخ .

فالطفل أصبح الآن فدائياً هائجاً ،

و اللسان الجاف كالسنة لهب في حلفاء ،

إليكم أبناء الظلّ الساطعين ،

هذه الوردة الباردة .

هذه الدماء التي ما زالت تحرقني ، و من

الوهاد الساحلية ، من هذه الصخرة الكوكبية ،

للأهوال و العظام

أحيل لغتي إلى بارود ،

أشعل أساطيري الخاصة

و على صهوة جواد جامح أصحابكم

في رحلتكم
و أقول :
المجد لكم في الدرّى !
و هنا في السهوب لكم المجد !
المجد للصناديد عند شروق
الحجر ! فلتسعد الصدور
التي منها رضعتم ، لبن الكواكب السيارة كطعم الحنظل .
فلتسعد امرأة
وضعت على جباهكم أولَ قبلة ،
امرأة تغطّي وجوهكم في الساعة السوداء الأخيرة الخالدة .
عندها أثنى على رجولتكم ،
و سواعدكم القوية ،
و باسمكم
أرفع صوتي
كمن يُشهر سيفاً
في أمريكا اللاتينية
و أبخر الآلهة
احتفاءً بمولدكم .

مع الشاعر الكولومبي داسو سالديبار

في رحلته
من أوروك إلى فلسطين

1

داسو صانع الحياة

في "وحوش الألم" يربط الشاعرُ الأسطورة و التاريخ بالواقع المعاش ليصوّر صراع الإنسان ضد جانبه البهيمي الشرير ، منذ أن ولد في شخص جلجامش (ثلاثمئة عام قبل المسيح) ، الذي قتل خمبابا : (رمز البهيمة الشريرة) و مروراً ببيلاطو و أتباعه الذين قتلوا المسيح ، حتى عصرنا هذا الذي تقف فيه البشرية شاردة اللب و في فمها تساؤل : إذا كان جلجامش قد غسل قدميه تعبيراً عن براءته في عصر اختلطت فيه الإنسانية بالبهيمية ، و غسل بيلاطو يديه متنصلاً من جريمة ارتكبتها في عصر نضج فيه العقل البشري فماذا ستغسل القوى الاستعمارية ، و ماذا ستغسل الصهيونية بعد جرائمها في فلسطين و غيرها من بقاع العالم ! ...

لكي تحقق البشرية إنسانيتها توجّب عليها التخلّص من طبيعتها البهيمية ، و لكنها عبر مسيرة الخلاص هذه تعرّضت لنكسات ساعدت على تغلب الجانب البهيمي الذي بلغ الأوج فتكاً بالإنسان في عصرنا هذا . هكذا غاصت العشر سنوات الأولى من حياة شاعر "وحوش الألم" (كانيون دي سان خوليان - كولمبيا 1951/7/24) في دوامة ما يُعرف في تاريخ كولمبيا بمرحلة العنف التي امتدت ظاهرياً بين 1948 و 1962 ، إثر مقتل الزعيم الشعبي اللبرالي خورخي البيشير غايتن ، و ضربت بجذورها الدامية في الصراع القديم المتواصل على السلطة بين حزبي الأقلية اللذين تناوبا السلطة في البلاد تحت رعاية واشنطن .

و بعد أن أودت هذه المرحلة الدامية بحياة ثلاثمئة ألف ضحية ، جثها من الفلاحين الذين واجهوا حملات العنف بالصدور عارية ، دون وعي طبقي و أيديولوجي حقيقي لطبيعة المتصارعين ، استيقظ الشعب

الكولمبي ليكتشف حقيقة الأقلية الحاكمة المستغلة بوجهيها المحافظ و اللبيرالي . و ليتخذ بالتالي ، مكانه الصحيح في صفوف حركة التحرير الشعبية التي تبلورت في منظمة "إمي ديبثي نويبي" الفدائية .
و داسو سالدبيار في ديوانه "صانع الحياة" الذي اقتطفنا منه هذه القصيدة ، كما في جلّ نتاجه الأدبي ، و خاصة في "أقاصيص العودة" ، يعكس أكثر أصداء ذلك الصراع القاتل إيلاماً ، من خلال وعي سياسي واضح للظاهرة ، على اختلاف مواقعها الزمانية و المكانية ، بداية من جلجامش أوروك إلى فدائي فلسطين .

2

وحوش الألم

بين القدم و اليدين
يمتد محيط إنسان
محيط كينونة بشرية إنسانية
و ما نلمحه هنا
ليس أكثر من يمّ :
من أوروك إلى لاسيو
منحدرًا إلى بوليفيا
و فلسطين كاملة
حينئذٍ ، عند فجر أوروك
قال فتى لجلجامش :
أقتل خمبابا ، أقتل البهيمة
أقتلها في أحراش الأرز
و أغسل يديك !
غسل جلجامش قدميه
و قال :
لستُ أنا القاتل
إنه الإنسان
الذي يولد
طفلاً على أقدام القرون !
و على شاطئ لاسيو .
عند الهجيرة الهاجرة
قال عجوز لبيلاطو :
أقتل أنكيديو (المسيح)
أقتله في سهوب النفس
و اغسل يديك !
غسل بيلاطو يديه
و قال :
لستُ أنا القاتل ،
إنها هي ، إنها البهيمة
التي تتقرض
على رأس القرون
لكن وا ويلتاه !
فقد راح هذا العرف
في صلب الزمن يدبّ
حتى يتوقف في بوليفيا و فلسطين الدامية ...

من كروم التين و البرتقال الحزين
انطلق عند الغروب صوت
كان ينتظر الأوامر :
أقتل الفدائي
أقتله عند منعطف حريتنا
و عطر الحجة !
خادم العم سام ضمخ بالطيب حجته
و قدمها لنا في العالم أجمع كي نستشقيها .
لكن الجرح كان لا يزال عنيداً ،
معششاً في ذاكرة الإنسان :
بهيمة الشمال
كانت في حرش من أحراش بوليفيا
و ما زالت في بيارة برتقال من بيارات فلسطين
تقدس خمبابا .

الشاعر الطليطي خواكين دي لوкас

بين أريحا و بيت لحم

تأنة بجهش بالبكاء

خواكين شاعر الفن للحياة :

ولد الشاعر الإسباني خواكين بينيتو دي لوкас في ثل إيبيرا - طليطة ، سنة 1934 . بعد تخرجه من كلية الآداب عمل سنة 1960 مدرّساً للغة الإسبانية بالمركز الثقافي الإسباني في عمان و دمشق ، ثم برلين و لم يعد إلى بلاده إلا سنة 1969 . ليمارس المهنة نفسها حتى تقاعد عن العمل الوظيفي كأستاذ في جامعة مدريد .

بدأ خواكين يكتب أولى قصائده في منتصف الخمسينات و ينشرها في مجلة "الشعر الإسباني" ، أو يلقبها في مهرجانات شعرية في جامعة مدريد أو في مجمّعها الثقافي . و قد تتلمذ في هذه الفترة على شعراء مثل خوسي برّو و داماسو ألونسو .

في إطار الكثافة اللينة و العاطفة الجياشة اعتمد شعره على معرفة المحيط الخارجي للأمر من ناحية و على التجربة الشعرية التي تعطي القصيدة صورتها النهائية من ناحية أخرى .

و في تجربته الشعرية نلمس ظلالاً سوربالية خفيفة ، حيث يسبر في ديوانه "الطحالب" 1976 أغوار دنيا الأحلام و اللاوعي . و مع هذا يظلّ الطابع الغالب على أدبه واقعياً ، يؤكد على أن الحياة و الشعر هما الشيء نفسه ، حتى جاء ديوانه "تتافر" سنة 1983 قاطعاً في حكمه : "إما أن يكون تاريخنا أدباً أو لا يكون شيئاً آخر على الإطلاق" . *

و لقي شعر خواكين قبولا لدى القراء و النقاد فحصل سنة 1967 على "جائزة أدونيس للشعر" ، على ديوانه "مادة للنسيان" ، و سنة 1976 على "جائزة ميغل إرنانديث الشعرية" على ديوانه "مذكرات الرياح"

سمحت له إقامته في سوريا الكبرى بمعايشة الشرق و سبر أغواره وطناً و ثقافة ، فجاء "الهواجس" سنة 1964 ثمرة طيبة لهذه التجربة الغنية لشاعر قضى شرح الشباب في دراسة العالم الروماني اللاتيني و معايشته . لهذا كانت ضربة الحظ التي حملت الشاعر إلى سحر الشرق قوية الأثر حتى تنازعت المشاعر الشرقية و الوطنية :

الناس الذين أعيش معهم
بعيداً عن بلادي

يروني أمرّ مائلاً

الصباح بالشجون

و عن بُعد يُسمع

صوت البحر في القيد يشدو .

و يُبحر ليلاً في صحرائنا العربية حيث "تتقدّم القافلة / و الرجال يداعبهم النعاس / دون صوت في الحناجر ... / يئنون تحت سيف الألم" ، حتى يصل البطراء : "مدينة تحاصرها الرمال / مدينة عتيقة في عالم النسيان / حيث الحجر وحده يشدو / طليقاً في الهواء / محطماً قيوده / ناضجاً من انتظار غزاة كثيرين" .

و في القسم الثالث من "الهواجس" يعبر نهر الشريعة إلى فلسطين : القدس و أريحا و بيت لحم ، فيغني في ظلال زيتونها و لوزها أعذب الأنغام ، و بخشوع يعيش ذكرى المسيح عليه السلام أرجة يانعة .

و تظل ذكرى الشروق في نفسه ريانة ترطب من جفاف الشعور بالغبّة و خيبة الأمل الذي عاشه في ألمانيا و انعكس على ديوانه : "معسكر الاعتقال النازي KZ" سنة 1970 .

خواكين في دواوينه العشرة بعامة ، و في "فلسطينياته" خاصة يؤكد على أمر واحد : "الصباح سأظلل أنتظره ، حتى و إن لم يأت" .

2

أسوار القدس

الجبال وردية

و الوديان زرق ،

الأنهار متناقلة

و صفير الريح مشدود

بين أشجار صنوبر

تراني أبكي عند أسوار

هذه المدينة العتيقة .

راحت النسمة بين أشجار

الزيتون تشدو

و تحتضن الأطفال ؛

و راح الناس أيضاً بين

أشجار الزيتون يهزجون .

على أبواب هذه المدينة أقف

وحيداً رهين الريح و البشر ،

و الذكريات و الأطفال ؛

كما لو كنت بين بيت لحم

و أريحا تائهاً أجهش بالبكاء .

3

البحث عن أريحا

جبال فلسطين

عند الصباح توجّتها براءة الطفولة .

كان الليل أشمّاً

و النجوم ناصعة

و أنت يا من تخبّ بحصان جريح
بحثاً عن أريحا بين النخيل
سيقان أسل لدنة
تنمو على ضفتي نهر الشريعة الضيقتين .
بجوار البحر الميت ، المياه ضريرة
تغني أغنية الموت الذي
راح صوته كنهر سلام إلى
شرايينك يتسرب
و ها أنت أخيراً في "أرض الميعاد"
بعد تجاهل طويل و سير
حثيث بحثاً عن حشائش ،
علامة غيث و آثار حافر حصان ،
و أطلال منازل و مواقد .
سواء كنت تقيماً من أتقياء مريم
أو حاجاً إلى مثنى سانتياغو ، تأتي
أريحا تكسو صدرك الأصداف ،
رداؤك متسخ ، و العكاز بيمنك
و تشرع في الصلاة أمام الطبيعة .
من المدينة العتيقة لم يبق شيء
في الذاكرة ، سوى نبع عجيب
و شجرة في ظلها ما زالت
تصوّت خشخشة الأردية
الزرق و صوت الأنبياء قد انطفأ .

4

على ضفاف نهر الشريعة

غير المكشوفة و المخفية في النفس
هناك دروب أخرى ،
أنت لا تودّ رؤيتها .بينما نصعد ، عند المساء ،
من البحر الميت إلى بيت لحم
تقول لي إن الحياة نسغ نعصره
بأيدينا ثم يختفي كما تتلاشى
مياه هذا النهر في البحر .
و إن كان كذلك ، فلم المساء
له هذا القطيع الملون الهائم
في الجبال الوردية الزرق ؟
لماذا تشدو الشمس على
رؤوس الأطفال ؟
لماذا يملأ الربيع بصوته عناقيد كثيرة
أنظر النسيم بين الأشجار يصفق
لكل لحظة حياة في هذه الغادة
التي ترد النبع لتملأ جرتها و ترفعها
على الرأس ببهجة تأسر الأبق .
إذا كانت الحياة نسغاً نعصره بأيدينا
فلماذا نذهب ، هذا المساء ؛ أنا و أنت
يحدونا الأمل إلى بيت لحم

تقولين لي و المدامة تتدفق من أعيننا
سروراً : "انظر نهر الشريعة"
فأنظر إلى مياه النهر الكدرة .
و يعصب الليل أعيننا
فأينك أنت .
أين تذهبين ؟

الخيار الفلسطيني

عند الشاعر الأرجنتيني خوليو هواسي

1

خوليو هواسي فارس الكلمة الجموح

قد يكون مولد الشاعر الأرجنتيني خوليو هواسي عند منتصف العقد الرابع من هذا القرن (1935/3/20) ، في خضم الهجمة الاستعمارية التي ما زالت تدمي الإنسان و التراب في شتى أنحاء المعمورة) ، قد صاغ الطابع الإنساني المقاوم الذي يميّز مواقفه من قضايا الحرية و العدالة ، فقد جمع إلى نزاهة الموقف كفاءة إبداعية جعلت من صوته "ذي النبرة الأمريكية اللاتينية نغماً متميزاً" ، يقف على قدم المساواة إلى جانب أرفع أصوات الجيل الجديد في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر و أبرزها .
فقد تجلّت هوية خوليو الإبداعية في قدرة قصائده الخارقة على التأثير و امتلاكه ناصية اللغة التي هي عنده "تمر كاسر ، هو سائسه الذي يتفاهم معه بالنظرات" ، و هي أيضاً سبق للمعطيات لا نتيجة لها . و بهذا راح شعره يفتق براعم اللغة كاشفاً من داخلها عن حدس غدته مشاعر إنسانية ألهبها الظلم و الشقاء .
و منذ أن صدرت مجموعته "أنغام شعبية من بوينوس آيريس" سنة 1959 ، راح يثير حفيظة الأدب الرسمي السائد و يبعث الارتياح في نفوس أولئك الذين يطمحون لقراءة فن جذري أصيل ، يحرك الواقع و يسبر أغوار النفس ، فيغرف من نسغها زادا تتزوّد به الروح في مسيرتها النضالية ضد السم و الشرور ، إذ غاص الطابع الإنساني لمطولة "الأنغام الشعبية" في باطن العذاب و القهر حتى التقى في الأعماق بجنود "كوميديا دانتي الإلهية" .

من هذا المنطلق الجماهيري كمدخل وحيد لفهم حقيقة هذا العالم الذي هو عالمنا ، جاءت "البيانكية" سنة 1960 لتصورّ العزلة التي تعيشها الشعوب في ظلّ تسلط أدياء الثورة ؛ و هي عزلة يكشف عنها في "الخارقون للعادة" سنة 1965 ، حيث يؤكد على ضرورة التعامل الأصيل و الصادق مع المعطيات ، دون أفنعة ، الأمر الذي وسم ديوانه الثالث هذا بالجذرية في وضع النقاط على الحروف و تسمية الأشياء بأسمائها ، حتى كادت حيازة الواحدة من نسخ طبعته الأولى ، الثلاثة آلاف ، كافية لدى سلطات انقلاب 1976 ، لتبرير اعتقال حائزها .

و لقي نضال المرأة الوطني صداه في شعر خوليو هواسي . فبعد أن صورّ ظروف الثورة الأمريكية اللاتينية سنة 1971 في ديوانه "قصائد" ، راح في "وطني الأزرق ، وطن الأمهات" يغيي بأصوات منوعة توضيحات المرأة الأرجنتينية و صمودها في وجه الطغيان العسكري الحاكم منذ أن ولدت "حركة أمهات مايو" سنة 1977 بإثنتي عشرة أم طفن بسجون السلطة بحثاً عن أبنائهن الذين أخطفوا و ذهبت ريحهم .
بعد صمت طويل فرضته عليه الظروف الرهيبة التي تعيشها قارته صدر له في مدريد سنة 1981 ديوانه "المجازر" الذي يعزف فيه على أكثر أوتار القصيد حساسية لتصدر عنها الأنغام كعيار ناري ينطلق من مسدس يوجّهه إلى صدغ آلهة الاستغلال و القهر ، حقناً لدماء قارته التي راحت تقاوم و تصدّ الهجوم في بحثٍ مثير عن بشرى تلوح في الأفق .

و لهذا ، اعتبر خوليو كورنتار "المجازر" "من أسمى ما قيل في الشعر عن أوضاع أمريكا اللاتينية و قضايا التحرر الإنساني" .

و مع أن ظروف حياته الشقية لم تسمح له بشيء من الاستقرار يمكنه من التفريح لعملية الإبداع الفني ، فقد أصدر خوليو - حتى الآن - ثمانية دواوين شعرية ، صب فيها تجربته الشخصية التي كانت شاهد عيان على ثلاثة انقلابات عسكرية دموية رعتها الولايات المتحدة الأمريكية بين 1973 و 1976 في الأرغواي و تشيلي و الأرجنتين . و إن كانت النكبة - كما يقول جيمس جويس - تحطم نفسية الإنسان و تطرده من الواقع الخارجي إلى داخل نفسه ... حيث تتكتم همزة الوصل الواعية بينه و بين العالم فإن "ألفاً من أكاليل الشوك و المآسي" لاحقت الشاعر و الصحافي خوليو هواسي عبر دروب أمريكا اللاتينية ، إلى أن قذفت به إلى ضفة المحيط الشرقية ، لم تزده إلا إيماناً بحتمية النصر ، و تحريضاً للإنسان على الموت في سبيل وطنه الذي "في هوائه تتطاير جذوره الجسدية و تصرخ بسماء من النابالم" ، حتى لا يظل في الأرض "مختاراً و منبوذاً" و "يكون للفلسطينيين وطنهم ، أو لا يكون هناك وطن لأي كان" ، كما جاء في ديوان المجازر الذي منه اقتطفنا ثلاثية "فلسطينيو الفداء و النصر" ، و فيه كارنستو كاردينال في جيشسماني كي "رأيتُ تطوراً جديداً و لحناً جديداً : كل كواكب الأحياء الأخرى سمعت الأرض تغني أغنية حب" .

2

فلسطينيون

إلى ليلى و خالد

جذورهم الجسدية
في الهواء تصرخ بسماء من النابالم
قطيع من ذئاب حمر
تلتهم خراف الوطن العتيق السماوية
تركل رماد الموقد
الأطفال كشطية خشب مشبعة بالراتنج
بين أيدينا يحترقون .
تجاوزت الجحيم يا سيدي
في قدمي بيادر أقدام سارحة
تهيم على وجهها
يا رب هذا الحي الكوكبي
إله عيسى و موسى و محمد
استجب من عليائك
إن كان لك وجود
انتهت عمليات إخلاء الكرة الأرضية
و المستأجرين المختارين
و المنبوذين .
الأرض لمن يرويها بدمه
و تحت أعنان الشمس مكان
للجميع
بمشيئة الله يا إلهي
ألا يعصوبك بعصابة المنافي الحزينة
أنت تعرف كم هو ثقيل صليب عبادك المشردين .

سيكون ذلك عربية حب
لكلّ المخلوقات
فيكون للجميع وطن
أو لا يكون هناك وطن لأيّ كان .

3 نداء الوطن

الداعرات بشفاههن المصبوغة
يا موسى الرعب
يهزرن مهدك
دعائم سفينتك جدّفت عليها القدر
جسد أضنته العاصفة
اليوم هو أول يوم من نورك
بعد الموت دائما كفرخ نسر
نصرخ
و دون طعام
نولد
لكن بالشمس تحت الإبط
في أمريكا اللاتينية أردنا أن نحلم
ففاض بنا الحب
و أجسادنا ما سمت سموّنا
و كلما كثر الموت عن أنيابه
أصبحت أمريكا أمانة في أعناقكم
غريان الكون تستنفذ الكؤوس .
و لتسر النمرور
فالبيوم هو آخر ليالي الأمس
فداءً للوطن
أيها النمر
فداءً للوطن .

4 النصر لنا

رغم ألف من أكاليل الشوك و المآسي
و بجرح أقدامنا سيكون النصر لنا ، نعم ،
في وجه الموت المتواصل ، و عاصفة الدموع ،
ببؤسنا الذي لا يرحم
بنتفّ السُنّ مقطوعة
حتى بدون أيدي سننتصر ، نعم ،
درجات سلالم مكسرة

نبيي سلماً من الفقراء
برؤوس مبتورة
جماعها في أحضان أمهات حصدتهن الرشاشات
و مهودها توابيت ، نعم ،
بكلّ ذلك سيكون النصر لنا . نعم ،
بخشيتي الصليب و مساميره كالسكاكين
سنمحو الصالب و ننتصر ، نعم ،
ديدان السرة
و عيون تفرغت
و أفواه يملأها التراب
ستحتّ الخطى و إلى النصر تقودنا ، نعم ،
بالآلهة في المقدمة أو برأس الآلهة ،
كبحر من جبر حي ستثور أجمة العظام هذه
و ستحتّ الخطى صحبة أسماك
و جذور في اللبلة العدوّة ، و سننتصر ، نعم ،
بالقفز من الوتر الرابع إلى الوتر الخامس في القيثارة الملتهية
إلى الوتر السادس و وترها الثخين في صلاة جنائزية ،
بهذا سيكون النصر لنا ، نعم ،
رغم أفاعي الغازي يمارس الإبادة في وضح النهار
سنشهر ضلعاً ، بالأسنان و بالأظافر و بكل وسيلة
سوف ننتصر ، نعم ،
بالوية دم الشهداء على عربات المدافع
و عيونهم تلتقي بعيوننا مؤكدة على الصمود ،
نحن لا نحرث بيت نمل أعمى ،
في سبيل بيت الحب سوف ننتصر ، نعم ،
بالربيع طلقاً في اليدين و بالحب في الصدر ،
و الزوجان تظلهما الملاطفات و المستقبل الزاهر
بالعذاب نفتح هذا الجسد للحياة كي ننحت فيه الشفاه العذبة
التي بها نطبع القبلات على تجارب حبنا و زغاريده
الجديدة و القديمة ،
ببراعها الساهرة على السنة
نيران الخلاص
و عصفورها (التفاحي) يجتاز الموت
بتغريده أغان المعجزات
و إنشاده (الميلونغا) مسيحاً :
النصر لنا ، النصر لنا ، النصر لنا .

أنطونيو مورينو
من عذابات إسبانيا يغني فلسطين

1
أنطونيو شاعر العذاب الإنساني

بينما كانت فلسطين تموج بثورتها المسلحة و عصيانها المدني في وجه الإنتداب البريطاني ، عند نهاية الثلاثينات ، كان تلاميذ مدرسة المعلمين الاعتيادية الواقعة في شارع سان برناردو المريدي يصطفون أمام علم جمهورية راحت وفتذاك تترنح تحت ضربات الانقلاب العسكري اليميني الذي كان يجتاح إسبانيا و يمزقها .

و لما أوشكت قوات الانقلاب بقيادة الجنرال ياغي على كسر خط الدفاع الجنوبي عن مدريد و اجتياز نهر المنثارس تجمّع أطفال هذه المدرسة و أطفال مدارس اخرى في مستشفى مدريد استعداداً للانضمام للفلول الجمهورية إذا ما تقهقرت إلى مدريد .

و بينما كانت ميليشيات الجمهورية بقيادة الجنرال إنريكي ليستر تستमित في الدفاع عن مواقعها عند جسر الفرنسيين بضواحي مدريد الغربية ، كان الجنرال كاسادو يتستر - تحت شعار السلام - لتقديم مدريد لقمة صائغة للجنرال فرانكو ، غير أن المجتمعين بالمستشفى رفضوا الطروحات الاستسلامية و شكّلوا الفرقة الخامسة التي تصدّت للمتأمرين و الانقلابيين ، حتى قتل معظم أفرادها و لاذ بالتستر من بقي منهم على قيد الحياة ، كي يعود للانطواء فيما بعد تحت راية "منظمة الإنجيل" الفدائية التي شكلها سنة 1939 خوسي ميريно كامبوس ، و راحت تقوم بعملياتها في إقليمي ألبنتي و إكستريمادورا ، في انتظار أن تأتيها الحرب العالمية الثانية بعون القوى العالمية التقدّمية الذي ما كان سوى سراب تلاشى بانهايار المقاومة و لوذ مقاتليها بالمنفى أو بالاستتار عن أنظار السلطة الجديدة ، التي راحت تقبض عليهم الواحد تلو الآخر و تزجّ بهم في غياهب السجون العسكرية و الجنائية أو تقودهم إلى الأعمال الشاقة بجبال وادي الشهداء "حتى بلغ عدد ضحايا الجمهوريين بين 1939 و 1943 مئة ألف ضحية" .

هذه هي أهم المنعطفات التي مرت بها حياة الشاعر الشعبي أنطونيو مورينو ميخياس (1929/5/11 غوارينيا - وادي حوف) ، منذ أن ترك مدرسة المعلمين الاعتيادية منخرطاً في صفوف الميليشيات الجمهورية حتى تم اعتقاله في 1947/4/13 ، و راحت تتقاذفه سجون مدريد و أوكانيا و قادش و وادي الشهداء و قلعة عبد السلام ، حتى لفظه هذا الأخير إلى شوارع مدريد في 1964/8/17 ليحاول - دون جدوى - التكيّف مع وضعه الجديد ، الأمر الذي دفعه سنة 1973 إلى الهجرة لألمانيا الغربية ليعمل حمالاً مدة عامين عاد إثرها إلى وطنه ليقوم بواجبه الإنساني في الدفاع عن قضايا الإنسان العادلة دون أن يضع حداً أو يحدّد عرفاً لهذا الإنسان .

و بهذا راح أنطونيو ينتقم من جلاذيه بالكتابة ، فنشر "بيت الأختين" في أدب الرحلة ، حيث نجد الإنسان مرهقاً يهيم في مجاهل هذا العالم الظالم على وجهه . أما تجربته الحياتية المرة فقد مزجها بالأم الإنسانية حيث وُجدت ، و صبّها في كتابه "نشر الميت لتسريحه" ، حيث يستعيد ذكرى رفاقه الذين عُذبوا و قتلوا مشيراً بإصبع الاتهام إلى الجلادين .

هكذا التهمت السجون السياسية من حياة أنطونيو مورينو سبعة عشر عاماً ، زادت من إيمانه بضرورة الدفاع عن الحق و عدم الاستسلام للطغاة الغاصبين . خرج من السجن كي يجد الذئاب الكاسرة تذرع الكرة الأرضية ، ناشبة مخالباها في جسد الإنسانية في فيتنام و جنوب أفريقيا و أمريكا اللاتينية و فلسطين ؛ نعم في فلسطين ، حيث تألبت الذئاب بمختلف فصائلها على هذا الوطن الآمن ، كي يتمكن من افتراسه ذئب هجين أتت به بقية الذئاب كي يكون حارساً لمطامعها في المنطقة . أمام هذه الحقيقة المرة جرد أنطونيو مورينو قلمه في وجه تلك الذئاب ، مغنياً كلّ جرح في جسد الإنسانية ما زالت تدميه المخالب الغازية حتى جاءت "رياح الشعب" سنة 1977 تحمل بين صفحاتها هذه "الأغنية إلى فلسطين" :

2 أغنية إلى فلسطين

سلطان النور بلا حدود
يطل من نافذة كبيرة
على المصرعين مفتوحة .
نبيلة كما لم تكن أبداً
هي في قلبك الصداقة ،

هدئي من روعك يا أم الشعوب :
يا فلسطين الحبيبة .
إلى الأمام صفاً واحداً
أيها الفدائيون الرفاق
إلى الأمام و النصر لنا .
شعوبنا سُحقت
آباء و أصدقاء لنا قد استشهدوا .
النضال قدرنا جميعاً
سنقاتل حتى آخر رجل .
و حدي الراية أيتها الشعوب
ضد المعتدي الشرير .
وطن أثنخته الجراح :
حرب ، فحرب ، و حرب هو حصادنا !
في كلّ شبر و فرسخ من ترابك ، يا فلسطين
يا وطني الغالي ، أعداؤك سوف يُهزمون .
كنت وحيدة أنت في نضالك من أجل الشعوب المقهورة !
كنت يتيمة من الحنان البشري
قبل أن تهيك الحياة
أنثى ولود و سبع كاسر
و ذئبة و ضبعة ، و لبؤة جريح
إيه يا فلسطين !
طفلٌ يدفن أخاه الشهيد
كم هو قاس دفن الشقيق .
طفل في الثامنة من عمره يلعب
فأىّ لعبة هي لعبة الحرب
طفل يغني ، الحرب هي أغنيته .
صبيّ في الثانية عشرة من عمره يصعد سفح الجبل
مقسماً على الثأر لأخيه ؛
فالأمس غروب دام
والحاضر زيتون متوقد .
قلبي و كلمتي و مشاعري تحرسك
فهني لك يا فلسطين .
أرض باركها الله هي اليوم ذبيحة :
دمّ و جوع و رعب و موت ...
يا وليداً تنتظر الحياة ، دون سقف ،
دون فرش ، دون ضوء ، دون صوت ،
أنت منذ الآن ميّت !
فيا للعذاب القاتل الذي يفتك بصدري .
عندما خلق الله الإنسان ،
صوّر المرأة و شكلها بتلك الطبيعة الولود .
تباركت يا إلهي .
تبارك المبدع الخلاق لطبيعة كهذه .
قال البعض - و يا للنفاق - :
كم هي متوحشة تلك الخراف لأنها
لا تترك نفسها فريسة سهلة
للأخ الذئب ، تماماً كما فعل معلمها
يسوع المسيح .

أنطونيو مورينو من عذابات إسبانيا يعني فلسطين

1

أنطونيو شاعر العذاب الإنساني

بينما كانت فلسطين تموج بثورتها المسلحة و عصيانها المدني في وجه الإنتداب البريطاني ، عند نهاية الثلاثينات ، كان تلاميذ مدرسة المعلمين الاعتيادية الواقعة في شارع سان برناردو المرديدي بصطفون أمام علم جمهورية راحت وقتذاك تترنح تحت ضربات الانقلاب العسكري اليميني الذي كان يجتاح إسبانيا ويمزقها .

ولما أوشكت قوات الانقلاب بقيادة الجنرال ياغي على كسر خط الدفاع الجنوبي عن مدريد و اجتياز نهر المنتراسر تجمّع أطفال هذه المدرسة و أطفال مدارس اخرى في مستشفى مدريد استعداداً للانضمام للفلول الجمهورية إذا ما تفهقرت إلى مدريد .

و بينما كانت ميليشيات الجمهورية بقيادة الجنرال إنريكي لبيستر تستमित في الدفاع عن مواقعها عند جسر الفرنسيين بضواحي مدريد الغربية ، كان الجنرال كاسادو ينستر - تحت شعار السلام - لتقديم مدريد لقمة صائغة للجنرال فرانكو ، غير أن المجتمعين بالمستشفى رفضوا الطروحات الاستسلامية و شكلوا الفرقة الخامسة التي تصدّت للمتأمرين و الانقلابيين ، حتى قتل معظم أفرادها و لاذ بالتمسك من بقي منهم على قيد الحياة ، كي يعود للانطواء فيما بعد تحت راية "منظمة الإنجيل" الفدائية التي شكلها سنة 1939 خوسي ميرينو كامبوس ، و راحت تقوم بعملياتها في إقليم ليبنتي و إكستريمادورا ، في انتظار أن تأتيها الحرب العالمية الثانية بعون القوى العالمية التقدمية الذي ما كان سوى سراب تلاشى بانهييار المقاومة و لوذ مقاتليها بالمنفى أو بالاستتار عن أنظار السلطة الجديدة ، التي راحت تقبض عليهم الواحد تلو الآخر و ترجّ بهم في غياهب السجون العسكرية و الجنائية أو تقودهم إلى الأعمال الشاقة بجبال وادي الشهداء "حتى بلغ عدد ضحايا الجمهوريين بين 1939 و 1943 مئة ألف ضحية" .

هذه هي أهم المنعطفات التي مرت بها حياة الشاعر الشعبي انطونيو مورينو ميخياس (1929/5/11 غوارينيا - وادي خوف) ، منذ أن ترك مدرسة المعلمين الاعتيادية منخرطاً في صفوف الميليشيات الجمهورية حتى تم اعتقاله في 1947/4/13 ، و راحت تتقاذفه سجون مدريد و أوكانيا و قادش و وادي الشهداء و قلعة عبد السلام ، حتى لفظه هذا الأخير إلى شوارع مدريد في 1964/8/17 ليحاول - دون جدوى - التكيّف مع وضعه الجديد ، الأمر الذي دفعه سنة 1973 إلى الهجرة لألمانيا الغربية ليعمل حمالاً مدة عامين عاد إثرها إلى وطنه ليقوم بواجبه الإنساني في الدفاع عن قضايا الإنسان العادلة دون أن يضع حداً أو يحدّد عرفاً لهذا الإنسان .

و بهذا راح أنطونيو ينتقم من جلاّديه بالكتابة ، فنشر "بيت الأختين" في أدب الرحلة ، حيث نجد الإنسان مرهقاً يهيم في مجاهل هذا العالم الظالم على وجهه . أما تجربته الحياتية المرة فقد مزجها بالأم الإنسانية حيث وُجدت ، و صبّها في كتابه "نشر الميت لتسريحه" ، حيث يستعيد ذكرى رفاقه الذين عذبوا و قُتلوا مشيراً بإصبع الاتهام إلى الجلادين .

هكذا التهمت السجون السياسية من حياة أنطونيو مورينو سبعة عشر عاماً ، زادت من إيمانه بضرورة الدفاع عن الحق و عدم الاستسلام للطغاة الغاصبين . خرج من السجن كي يجد الذئاب الكاسرة تذرع الكرة الأرضية ، ناشبة مخالباها في جسد الإنسانية في فيتنام و جنوب أفريقيا و أمريكا اللاتينية و فلسطين ؛ نعم في فلسطين ، حيث تألبت الذئاب بمختلف فصائلها على هذا الوطن الأمن ، كي يتمكّن من افتراسه ذئب هجين أنتت به بقية الذئاب كي يكون حارساً لمطامعها في المنطقة . أمام هذه الحقيقة المرة جرد أنطونيو مورينو قلمه في وجه تلك الذئاب ، مغنياً كلّ جرح في جسد الإنسانية ما زالت تدميه المخالب الغازية حتى جاءت "رياح الشعب" سنة 1977 تحمل بين صفحاتها هذه "الأغنية إلى فلسطين" :

2 أغنية إلى فلسطين

سلطان النور بلا حدود
يطل من نافذة كبيرة
على المصراعين مفتوحة .
نبيلة كما لم تكن أبداً
هي في قلبك الصداقة ،
هدئي من روعك يا أم الشعوب :
يا فلسطين الحبيبة .
إلى الأمام صفاً واحداً
أيها الفدائيون الرفاق
إلى الأمام و النصر لنا .
شعوبنا سُحقت
آباء و أصدقاء لنا قد استشهدوا .
النضال قدرنا جميعاً
سنقاتل حتى آخر رجل .
و حدي الراية أيتها الشعوب
ضد المعتدي الشرير .
وطن أثنخته الجراح :
حرب ، فحرب ، و حرب هو حصادنا !
في كلّ شبر و فرسخ من ترابك ، يا فلسطين
يا وطني الغالي ، أعداؤك سوف يُهزمون .
كنت وحيدة أنت في نضالك من أجل الشعوب المقهورة !
كنت يتيمة من الحنان البشري
قبل أن تهيك الحياة
أنثى ولود و سبع كاسر
و ذئبة و ضبعة ، و لبؤة جريح
إيه يا فلسطين !
طفلٌ يدفن أخاه الشهيد
كم هو قاس دفن الشقيق .
طفل في الثامنة من عمره يلعب
فأيّ لعبة هي لعبة الحرب
طفل يغني ، الحرب هي أغنيته .
صبيّ في الثانية عشرة من عمره يصعد سفح الجبل
مقسماً على الثأر لأخيه ؛
فالأمس غروب دام
والحاضر زيتون متوقد .
قلبي و كلمتي و مشاعري تحرسك
فهي لك يا فلسطين .
أرض باركها الله هي اليوم ذبيحة :
دمّ و جوع و رعب و موت ...
يا وليداً تنتظر الحياة ، دون سقف ،
دون فرش ، دون ضوء ، دون صوت ،
أنت منذ الآن ميّت !
فيا للعذاب القاتل الذي يفتك بصدري .
عندما خلق الله الإنسان ،
صوّر المرأة و شكلها بتلك الطبيعة الولود .

تباركت يا إلهي .
تبارك المبدع الخلاق لطبيعة كهذه .
قال البعض - و يا للنفاق - :
كم هي متوحشة تلك الخراف لأنها
لا تترك نفسها فريسة سهلة
للأخ الذئب ، تماماً كما فعل معلمها
يسوع المسيح .

الشاعر الأندلسي كارلوس الباريت على موعد مع القدس

1

كارلوس شاعر الزمن المدلهم

تجسد حياة الشاعر الإسباني كارلوس الباريت كروث Carlos Alvarez Cruz المولود في 1933/12/27 ببلدة شريش Jerez الأندلسية - التي نزلها جند فلسطين أثناء الفتح الإسلامي - نموذجاً للصراع الذي قد يخوضه المثقف ضد السياسي الحاكم . فمنذ أن غادرت أسرته شريشها سنة 1941 متوجّهة إلى العاصمة مدريد ، بعد مرور أربع سنوات فقط على إعدام القوات الوطنية لربها الضابط الجمهوري خوسي الباريت رويث ، رمياً بالرصاص في اشبيلية ، حتى وفاة الجنرال فرانكو سنة 1975 ، سجن الشاعر لأسباب سياسية ، مدة أربع سنوات و نصف السنة ، توزعت على أربع مراحل في سجون كرابانتشيل و برغس و كاثيريس التي ولدت فيها بعض أعماله الشعرية ، حتى أصبح - بحق - نموذجاً للشاعر السجين في الستينات ، تماماً كما كان ميغل إرناندث في الأربعينات من هذا القرن . بسبب مضايقة الشرطة الدائمة له ، تشرّد في فرنسا و هولندا و الدول الإسكندنافية و النمسا و ألمانيا و إيطاليا و الاتحاد السوفيتي ، فعاش قضايا الإنسانية و نضالها ضد الضيم و زاده ذلك تمسكاً بتراب وطنه و جعل من المنفى كابوساً يقض مضجعه :

لا يزال للمشرّد من وطنه اسم غير اسمي
و شتما يخيفني

و يفزعني

التفكير

في أن يصبح اسمه ذات يوم كارلوس الباريت

... ..

هذه هي الصورة التي تتراءى لي عن بُعد لذلك الإنسان
الذي تعرفون صوته

و هو الذي جرّعته "إسبانيا الطوائف" السجن و المنفى

... ..

هذا هو هاجس شعري أن إسبانيا

عندما تداعبها يدا خوان ستبدو

مضاءة بالقمح ، نقية ، طيبة .

في المدة الواقعة بين 1963 و 1960 أصدر كارلوس أكثر من ستة عشر مجموعة شعرية باللغة الإسبانية ، سبع منها ترجمت إلى لغات أجنبية ، منها العربية ، أكدت كلها على أن كارلوس الباريت من أكثر الشعراء الإسبان المعاصرين جرأة في القول و نشرأ خارج إسبانيا .

اتسمت أعمال كارلوس بواقعية الإبداع و عمق الدلالة ، حتى لا ترانا نبالغ إذا قلنا إن حياته و مسيرته الفنية تفرآن في عناوين أعماله ، مثل : "الكتابة على الجدران" 1963 ، "أخبار من إسبانيا" 1964 ، "أوراق عثر عليها سجين" 1966 ، "أن تكون منفياً بلا وطن" 1967 ، "موسم الحصاد و أعشاب أخرى" 1970 ، "أشعار الزمن المكفهر" 1976 ، "كالرغوة تقاوم الصخر" 1976 ، "تجآك الله يا مريم و قصائد علمانية أخرى" ، 1978 ، "أغان و حكايا مدلهمة" 1980 ...

و ينبع تضامنه مع الشعب الفلسطيني - كما صرح لمجلة فلسطين الثورة ، عدد 513 - من كون هذا الشعب قد طُرد من وطنه . و الشاعر يتضامن مع كلّ إنسان يطرد من أرضه ؛ و مع أنه يتضامن مع اليهود الذين يطردون من أوطانهم فهو عدوّ لدود للصهيونية المتمثلة في دولة (إسرائيل) التي يعتبرها ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، و يأسف لأنه لا يملك غير الكلمة سلاحاً في هذا الخندق ، إذ أنه يعتبر نفسه مناضلاً - من متراسه الإسباني - في صفوف المقاومة الفلسطينية ، و يرى أن نضال الشعب الفلسطيني هو نضال الشعب الإسباني نفسه ضد الإمبريالية الأمريكية التي يعتبرها - لا الشعب الأمريكي - عدوة للإنسانية . و الشعب الفلسطيني عنده هو الفقير المضطهد في الأسرة العربية الكبيرة ، و يتحمل حلفاء أمريكا من أغنياء المال العرب ، حكومات لا شعوب ، عار معاناة هذا الشعب .

2

أخي الفلسطيني

إلى أخي محمود

سألني أخي الفلسطيني

عن وطني ، فقلت له :

ليس شجرة هو و ليس نهراً ،

و لا حتى ذكرى

ليس هو البكاء على

ضريح أسلافي ؛

إنني بين الجبارين غريب ،

و مواطن بين الفقراء

عرباً كانوا أم يهوداً

صفراً أم سوداً

بيضاً

بدم أحمر أحمر .

قال لي : "أفهمك

و لكنني مشرّد و لا أدري أين

أبيت هذه الليلة

و أطفالني يتصوّرون جوعاً

فقد سلبوني كلّ أملاكي" .

حينئذٍ تلمّستُ في حزن تبيكيت

مفتاحي في جيبني

و قد تلمّطى و راح كسكين يحزّ يدي

يقول :

فلسطين هي وطني" .

3 حكاية في ثلاث مدن

إلى الشاعر الفلسطيني معين بسيسو
أمس في بيروت ، اليوم في تونس
و غداً في القدس

إن يُلق في قلب المياه النقية بالحجر
تفيض بموج مرتعش
يبتعد و يتناهى
حتى يكاد يتلاشى
لكنه يبلغ الضفة
فيرتدّ عنها
و ليس له من غاية في النفس
إلا استعادة عنفوانه
الكاسح المباغت الثقيل
و لذا يتمركز في القلب من جديد
كما الموج هو المنفى
الذي يسمّونه أحياناً غربة
فهو أبداً لا يزوي
إذ أن من أسمائه الأخرى أيضاً
و هو أجملها
اسم العودة
عادني طيفك يا معين
و أنت هناك في بيروت
و منك وطنك فلسطين على مرمى البصر
بين أرز لبنان أنشدنا :
أنا و أنت قصيد التضامن
بلسانين مختلفين
موجتك اليوم هي أبعد من أي وقت مضى
عن مسقط رأسها
بيد أنني أراها عن كتب
تغذّ الخطى في عودتها المحتومة
إلى أرض الوطن .

مدريد / تونس في أبريل 1984

الكلمة الفلسطينية المقاومة في شعر خابير بيان

1

خابير الشاعر المجدد

فلسطين ، كما يراها الناقد الإسباني بدرو ميغل لاميت ، هي الجرح المفتوح ، في قلب هذا العالم المريض ، الذي يسكننا اليوم بأهاته. و لما كان الاقتراب من المرض ، أو الحزن ، أو الجرح ، غير متيسر إلا بالحب ، أو الدواء ، و كان الشعر ، على الدوام ، شكلا من أشكال الحب ، فإن معنى اقتراب خابير بيان Javier Villan من القضية الفلسطينية ، يصبح جليا و مفهوماً ، و يعد خطوةً تجديدية ، في مضمون الشعر الإسباني المعاصر ، إذ أن قارئ هذا الشعر قلما يقع فيه ، باستثناء ما كتبه رفائيل البيرتي و ميغل إرناندث ثم كارلوس الباريث ، على مضامين سياسية ؛ و إن حدث ذلك يكون مجرد محاولة غير ناضجة نضج هذا النوع من الشعر عند شعراء كتبوا بالإسبانية مثل الكوبي نيكولاس غيين أو التشيلي بابلو نيرودا أو السلبادوري أسوالدو إسكوبار بيلادو أو النيكاراغوي إرنستو كاردينال [2] . و حتى تلك المحاولات التي قام بها شعراء إسبان مثل بلاس دي أوتيرو أو غابرييل ثيليا أو كارلوس سآغون في مستنقع الدم الذي تركته الحرب الأهلية الإسبانية تظل غارقة في استعاراتها الخاصة و نواقصها التعبيرية ، و غموض أفقها السياسي ، نتيجة لغياب الرأية ، و غياب الصراع . أما خابير بيان ، فعندما نظر إلى "الوجه في المرأة" ، تكشفت له استحالة التفاهم مع صورة الوجه ، التي لم تكن حقيقية ، في المرأة ، لأن المعاناة كانت تعكّر الوجه و تفقده حقيقته نتيجة لفقدان الهوية الشخصية ، و حضور الموت كقاسم مشترك بين الحياة و عبثها :

الموت شرط حياتنا

موتنا

خوفنا

دمنا

موتوا أيها الأشرار

كي تعيشوا ميسورين

فخابير بيان (تورّي دي مولينوس ، بالينثيا Palencia ، قشتالة : 1942/3/24) الذي شئت العصبية القبلية أهل قريته المائتي نسمة ، على المدن المجاورة ، توقدت فيه روح المقاومة عبر سنوات الحظر ، حتى قادته إلى استنتاج واحد :

"ما متنا على كثرة ما قتلونا"

من هنا راح يستلهم روح النضال الفلسطيني ، و يرفع راية التضامن الإنساني ، باسم كلّ المظلومين الذين تتعرض حقوقهم و جذورهم للسلب و النهب . فديوان "أمثال فلسطينية" Palestinas Parabolas ، يرسم لمحات غنائية على هامش موضوع ملحمي يصور نضالا عادلا يخوضه ، اليوم ، شعب صبور .

إن ترانيل الشاعر و صلواته لأجل الشعب الفلسطيني الذي "فقد البيت و الراية" ، تضع في الجزء الثالث من ديوانه ، النقاط على حروف مأساته و مشاعره الإنسانية دون اللجوء إلى قذف التهم جزافاً ، إذ أنه يدرك أن المسؤول عن بؤس الطفولة و الشباب ، في عالمنا ، قد لا يكون الجميع و قد لا يكون أياً كان ؛ فالإله الذي تصلي له قشتالة "رحيم" لأن الشاعر لا يودّ إلقاء اللوم على أحد ، و لا حتى على الإله نفسه ، لأن الذنب فيما يصيب قشتالة من مأس ، يقع على الطغاة الذين حكموها بالحديد و النار ، و أن أيّ مسؤولية غير مسؤولية هؤلاء الطغاة ، تحدّدها وجهات النظر على تباينها .

فقد مرّ جيل السبعينيات الذي ينتمي إليه خابير بيان ، في إطار الشعر الإسباني ، بفترة نقاهة من حمى فهم ملتوٍ لحدائثة حطمت قدرات الشعراء الشباب في ظلّ حَجْرٍ كاملٍ على الفكر لم يودّ إلا إلى تجلّم المفاهيم و عقم المضامين ، جرياً وراء قشور سوربالية غامضة .

و جاء خابير ليغوص في خضم الواقع السياسي و الاجتماعي ، بروح لا تعرف الكلل ، مبشراً بقدم سيل الشعر الاجتماعي الجارف الذي عمر الساحة في فترة لاحقة .

في ديوانه الأول : "الوجه إلى الحائط" ، 1974 ، يستعيد الشاعر من خبرته الصحافية الواسعة ، فيقلب مفاهيم السبعينيات في الشعر الإسباني المعاصر و يحقن القصيدة بحيوية جمالية ، و ينجح في إذكاء روح التمرد على الجمود ، و نشر روح التغيير ، و دفع القصيد "للنزول إلى الشارع عارياً" ليكتسب طابعه الجماهيري ، بإيقاع موسيقيّ جديد ، و تعبير أنضجته لغة كثيفة سهلة . كانت بداية طيبة لشاعر شاب يتوقد حماساً . و على عكس الأعمال الأولى لأيّ شاعر ، و ما يلزمها من صمت و تجاهل ، فإن "الوجه إلى الحائط" لاقى اهتمام النقاد و المعلقين ، حيث ميّزه إميليو ميرو بالتركيب الذكية السليمة و الطابع الإنساني الأخلاقي . و قد تضمّن الديوان قصائد رائعة مثل "طفوس دينية" ، "مدريد" ، "الحب" ، "الحنن" ، "كلّ السبيل" ؛ و انطلق خابير، في ديوانه هذا ، من موقف إنساني ، تمثّل في إعدام خوليان غريماو ، رمز الشعب ، و رمز الضمير الجمالي لنضال الجماهير ، رمياً بالرصاص .

و بصدر أول مختارات ، مترجمة إلى الإسبانية سنة 1969 ، من شعر المقاومة في فلسطين المحتلة ، أعجب خابير بالقيمة الفنية العالية لهذا الشعر و بالتزام كتابه بقضية شعبهم ، و التقى ذلك في نفسه بما اعتقد ، هو ، أنه طريق صحيح للوصول إلى الحرية و تحرير الوطن . لهذا حاول اقتفاء أثر المعاني النضالية السامية لهذا الشعر ، فتمثّل صدق ذلك في "أمثال فلسطينية" ، العمل الفني الذي نجح في إسقاط صورة فلسطين الدامية ، مع وجود طوابع خاصة لهذه المأساة ، على واقع قشتالة / إسبانيا ، التي وُلدت فيها كلمات الشاعر و دموعه .

فالمأساة الإنسانية عند خابير بيّان لها اليوم وجه فلسطين ، حيث يحاول في الأمثال الاقتراب ، بموضوعية ، من عذابات وطنه الذي كان ، حينذاك ، يقع على الخطّ نفسه الموازي لنهر العذاب الفلسطيني المتدفق :

بيت القصيد ليس حساماً يجعل الجرح يئن

و على الدوام يغوص في أعماق الواقع باحثاً عن جذور المأساة :

و أخيراً ماذا أريد أكثر من يدك و شعرك و صوتك .

أكثر من ريح غربية تتوغّل في أقبيتي الداخلية

حيث غرست الكارثة

مزيداً من الأزهار و الورود الجنائزية

و يمكن إجمال موضوعة "أمثال فلسطينية" في الحوار بين "الأنا" و "الأنت" بين الحبيب و محبوبه في ظلّ "الهُو" الرقيب ، مصدر القهر و الظلم ، حيث يستحيل الحب و الوئام في ظلّ التهديد السياسي بالقهر ، و التهديد الاجتماعي بقطع لقمة العيش :

إن لم أصل

إن ضلّ عقرب ساعة

اللقاء سبيله

فلا تسم جبيبي بلعنة

و لا تذر التراب على اللحظة التي فيها قد تعارفنا .

إن تغيّبتُ عن الموعد

فلأن ربحاً غضوبة

اقتلعتني

و قشتالة ، بهيمنة الكنيسة عليها ، و تحكّم رأس المال و الإقطاع بمقدّراتها ، "تبارك السلب" بالدعاء في صلواتها للطغيان : طغيان العسكر الحاكمين ، و طغيان الكنيسة المهيمنة :

إننا حيث كنا دائماً

بين الصليب و الحسام

حفار جحيم

و من رحم اللحظة القاهرة ، في ظلّ "الهُو" الظالم ، يولد الرفض ؛ رفض واقع إسبانيا في الربع الثالث من هذا القرن . و هنا يعبق الديوان بأنفاس أنطونيو متشادو عمقاً و ليون فيلبي تمرداً :

إنني حيث يسمحون لي .

يملكون

الصوت

و السوط

و المفتاح

و خزانة الطعام

لكن الشاعر يعود في قصيدة "صبغتُ الوجه" فيفقد الثقة بالواقع النضالي ، و ينسرب إلى أبياته إحساس بالعجز ، لأن كلّ وسائل التحديّ و المقاومة ، تبدّت له ، و كأنها فقدت ، و لو إلى حين ، فعاليتها .

كان العنصر المناضل في إطار حزب أو تنظيم ، يناضل سراً منخفياً تماماً كما يتخفى المهرج خلف قناعه و أصباغه ، و هو فعل قليل الجدوى في تلك الفترة ، التي ربما أحسّ الشاعر خلالها بشيء من الإحباط ، فأراد بذلك الدعوة إلى تعميق النضال ، و إلى مواجهة الظالم مواجهة مكشوفة ، دون الاقتصار على النضال السري . إن الشاعر يدرك جيداً حقيقة المهرج ، أو حقيقة النضال السريّ ، الذي يضحك في الظاهر و يمرح ، بينما الأهات في أعماقه تمزق الأحشاء . إنه يدرك تماماً أن الذي يعيشه ليس قصة خيالية ، و إنما هو حقيقة واقعة و منتشرة ، في جميع أرجاء إسبانيا في تلك الفترة ... و مع ذلك فتحمله لهذا الوضع له حدود ، يقف عندها ليحدّر الظالمين من عواقب التمادي في اضطهاده و قهره :

احدودب ظهري ، اعوجَّ و جثى .
 و لم أعد حتى
 الخمر
 أشربها
 فحذار من أن
 يتجرأ
 أحد على
 ملء
 كأسى .
 ملئها
 دون كيل
 بمظالم جوف
 كثيرة و غرورة .

و لأنه لم يعد يطيق هوان النضال السريّ ، عقد العزم على الخروج للمواجهة العلنية ، لكنه سرعان ما تماسك ، في مقابلته لرسالة الملازم مازن أبو غزالة بقناعاته النهائية لمعنى النضال و ضروراته :
 فلتنتصب الأعلام و لتزغرد البنادق
 فالنصر آتٍ في الوقت المناسب .

هنا يتخذ الحب صورة الانتقام الشرعي من السلوكيات الظالمة ، و يصبح الشعر، في "تألول الأطلال" خاصة ، مزيجاً اجتماعياً أخلاقياً ، يبلغ به خابير بيان أوج تألقه الشعري سياسياً و اجتماعياً ، فتعقب من الأبيات رائحة الكبت الذي عاشه الشعب الإسباني ، إثر حربه الأهلية . في هذا الديوان نتلمس قصة حب ملحاح ، لا يحدد عن الهدف الإنساني النبيل ، و فيه تتجلى محنة شاعر ملتزم بالقيم الإنسانية و يبحث في شخصه الفردي و الجمعي عن الحرية الكاملة الشاملة .

فخابير في "أمثاله الفلسطينية" ، يُبرز واقع قشتالة ، التي تُلغظ أنفاسها الأخيرة ، راضية بمصائبها ، مسلوبة الهوية ، تعيش خارج حقيقتها ، من خلال واقع مأساوي آخر تعيشه فلسطين الأرض و الإنسان . كما يشير الشاعر إلى تأثره بشعراء المقاومة الفلسطينيين و يشيد بكفاءتهم و يعبر عن إعجابه بهم ، كنوع من الاعتراف بنضال الشعب الفلسطيني و التضامن معه باعتباره نضالاً في سبيل الحرية و الخلاص من الاحتلال و استرداد الحقوق السليبية . فمن الوضع الذي يعيشه أولئك الشعراء ، و من روح المقاومة الوطنية الفلسطينية ، ينطلق خابير في "أمثاله" ليصوّر حياته السياسية و معاناته الإنسانية كمواطن إسباني في ظلّ الحكم التسلطي ، و يصف ظروف العمل السياسي و الحزبي السريّ في ظلّ نظام حكم كمّ الأفواه.

"الأمثال الفلسطينية" ديوانٌ و نموذج هام ، يرفع الصوت عالياً ، مطالباً بالحرية و يستلهم أصوات خمسة شعراء مقاومين ، ظلّوا يرزحون في وطنهم تحت حراب الاحتلال الصهيوني ، ينشدون فلسطين ، و من أجلها يبكون ؛ إنه استلهم يجعلنا نتفق مع خابير بيان ، على أن مهنة الصحافة و إن كانت قد أربكت توازنه النفسي ، فإنها لم تؤثر تأثيراً سلبياً على شعره . فالظروف التي شاعت لخابير أن يختار الكتابة و

نشر القصائد و الأناشيد في صحفٍ عديدة ، تاركاً فلاحه الأرض ، هي نفسها التي جعلته يحترف العمل الصحفي ، دون أن يتخلّى عن نظم الشعر ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن العمل الصحفي قد أعطى لغة خابير بيان الشعرية طابعاً مميزاً لها ، فجاءت لغة "الأمثال" مباشرة رقراقة ، ذات نكهة صحافية تستخدم المفردات بمعناها العادي المباشر ، دون تعقيد أو تكلف ، الأمر الذي أعطى هذا الديوان رصانة ميّزت بناءً الشعري عن مثيله في ديوان "الوجه إلى الحائط" .

فقد تمكّن شاعر "الأمثال الفلسطينية" ، ببحر قصير ، و مفردة متميّزة ، من الاقتراب ، في قسم الذكريات ، من حنين سميح القاسم ، و خيبة أمل سليم جبران ، لسبر أغوار مأساة الفدائي ، و مأساة شعب صبور ، لم يُبق له الظلم غير الاستشهاد طريقاً لتحرير وطنه و استرداد حقوقه :

أتذكّر . كانت الأمسية و كادت تكون ربيعية

و صوتك منسجم و شفتاك تضعان منخفضات حزينة

على الشفق الهائم البعيد العنيد

(إذ أنني لن أعود)

و بهذا يعلن الشعر عن نفسه ، كما سيعلن ، فيما بعد ، في "لحظة تردّد" ، ديوان خابير بيان السادس ، كضربٍ من الاستقصاء ، و محاولة التعبير عن النفس ، و فهم العالم المحيط بها ، من خلال سبر أغوارها .

و يطرح الشاعر ، في "أمثاله" قضية الجنس ، و يفعل الشيء نفسه في ديوانه الرابع ، "طحلب ليليّ و بحر" ، عنصر بناءً و تألف ، في ظلّ المساواة و الحرية ، كمقدمة يتجاوز بعدها ، في "تلاؤ الظلال" ، بعض التقاليد الاجتماعية المرعبة ، في زمن ما ، لحدّ اعتبار الحس و اللذة نوعاً من الحرية بمفهومها البشري ؛ ففي قصيدة "ماريلين" ، يعود الشاعر إلى طفولته ، حيث كانت إسبانيا "مكبوتة بتقاليدها ، و متحجرة بخلقياتها ، و فاشية في سياستها" ، الأمر الذي جعل ماريلين مونرو ، الممثلة الأمريكية المعروفة ، في ذهن الشباب المتطلع للخلاص منفساً ملتويّاً للحرية ! إذ كانت مظاهر الثقافة و الفكر في مجملها مقيدة ، أو واقعة تحت طائلة مقصّ الرقيب .

و تمزج "الأمثال" أيضاً عبقرية الرثاء بعظمة الأسطورة ، فهي ، كما قال خابير الفايا ، تحليل بهيج لغنائية ذات طابع عاطفي قوي ، و قدرة متفجرة على إلحاق اللعنة بالغايبين . و قد تطوّر هذا المزج ، حتى غاص ، في "لحظة تردّد" ، في أعماق التاريخ ، بالتطرّق لظروف دنيوية و دينية ، مجتازاً الحاضر ، عبر الذاكرة ، إلى المستقبل الذي أصبح ينعكس بوضوح على مرآة الحاضر .

بهذا ، جعلت جدلية "الأمثال" الزيتون ملعوناً ، لأنه بدل من أن يكون حقل سلام و استقرار ، أصبح حقل مدافع و قنابل تحمل الموت للشعب الفلسطيني الآمن . فالزيتون هنا ، ليس ملعوناً حقاً ، و إنما يصفه الشاعر كما يراه بعينيه اللتين ملأهما الاضطهاد رعباً ، تماماً كما ملأ الصهيوني الغاصب أرض فلسطين تفتيلاً و تشريداً .

فليس ثمة شاعر ، كما يقول فلورينثيو مارتينيث رويث ، يستطيع ، في موضوع الحرب و الحب و الموت ، الوصول إلى مستوى خابير بيان ، ووضوحاً في الأفكار ، و حماسة في الإنشاد . إنه الصوت الصافي الملتزم ، الذي يعرف كيف يوصل همساته الغاضبة من بين ركام مرثي القرن العشرين المضطربة الغامضة ... إنه صوت كبير متميّز ، يبشر بكتاب مبين ! .

و "الأمثال" ، باستثناء الاقتباسات المأخوذة عن محمود درويش ، و تأثيره الواضح ، في القسمين الأول و الثالث ، و تأثير فدوى طوقان و توفيق زياد ، في نشيد الختام ، ليس فيه أي وجود للموضوع الفلسطيني ؛ فما بالك بالمثل ! مع ذلك يبرز عنصر المقاومة ، كما يقول أنطونيو دومينغث ري ، في ثنايا الديوان ، محصوراً ، في دنيا خابير بيان العاطفية و الاجتماعية . و حتى تنجلي الأمور ، و لا تبدو "كموكب دخان" ، أمام جمهور من الأشباح" يتوجّب ، كما يرى خوسي مارية بالثيس ، فهم شعر خابير ، في إطاره الاجتماعي و النفسي ، للكشف عن وضع الإنسان في المجتمع الإسباني . و خابير لا يضع نفسه موضع المقتن للأخلاق أو المهذب لها ، و إنما بالنغمة الغنائية الرومنسية ، يكتفي بالتذكير ، بالدوافع و يغوص في علم الأناسة (الأنثروبولوجيا) ، بحثاً عن إيقاعات جديدة ، تعبّر عن الإحباط الذي يشعر به شاعر شاب ، ينتمي إلى بلد عريق و عزيز ، على نفوسنا ، نحن العرب ، مثل إسبانيا .

و هكذا يمكن القول إن "أمثال فلسطينية" عمل فني ناضج و جميل ، و يعد من أفضل دواوين الشعر الإسباني المنشورة خلال السبعينيات ؛ فبتحرّر الشاعر فيه ، من قيود المحسنات البديعية التي أثقلت ديوانه الأول ، أضفى عليه قوة و دقة تتجلى فيهما القدرة على التعبير و البراعة في البناء الشعري ، و الاستيعاب الجريء للمؤثرات ، مما جعل خابير بيان صوتاً حقيقياً ، أصيلاً و عميقاً في تجربته ، عمق الجرح الفلسطيني في شعر محمود درويش و فدوى طوقان و صادقاً في غضبه صدق روح الفداء و التضحية في أشعار سميح القاسم و توفيق زياد و سالم جبران .

بذلك يكون الشاعر خابير بيان قد قدم عملاً إبداعياً جديداً و ديواناً فريداً ، من نوعه ، للتراث الشعري الإسباني المعاصر ؛ قدّم كتاباً مقاتلاً ، فيه يحثّ الخطى على طريق شعراء ما بعد الحرب الأهلية مثل خوسي يرو و نورا و ثيليا و بالينتي و أنخل غونثالث و خايمي خيل الذين تركوا ، في إطار الحكم سابق الذكر ، لنا أروع ما كتب من الشعر الإسباني في تلك الفترة ، و أكثره إبداعاً . فشعر خابير ، بهذا ، يمثل جسراً ، يعبره القارئ إلى شعر جيل الخمسينيات في إسبانيا .

نشيد الختام

إلى شعراء المقاومة الفلسطينية

- بيت القصيد ليس حساماً يجعل البيت يزحر .
- بيت القصيد كلمات طريفة هاربة
- منثورة على أقطاب المعمورة الأربعة .
- بيت القصيد هو الغضب أو النحيب .
- يا درويش و فدوى طوقان
- يا جبران و زياد و القاسم
- من أجل فلسطين تكون
- و سيل الدموع يخبص الضمائر و يرفع البيادق .
- الاستعارات ثائرة و قواعد النحو ساخطة
- ترجر الغازي اللثيم و تلعنه .
- بيت القصيد ليس حساماً أو قذيفة أو رصاصة .
- هو بيت قصيد و ضمير مُنقل .

بين حقول الزيتون المسمّدة بالبارود
من صوتكم يقصف رعدنا الساهد .
أفواه تتزف الدم كسيل التيار
طير يحلق و بمنقاره غصن الزيتون
و بقبضته بندقية ، و تحت الأجنحة قنبلة .
أيتها القرى أيتها المدن
إيه أيتها الأرض السليبية
إيه يا سكان أقطاب المعمورة الأربعة
حيث الحرية مهزلة بلا عقاب
و الحمى نهب غزوات البرابرة
و الفزع المرعب يملأ المنازل و الابتسامات
و الكلمات و العيون و الأيدي ، حيث
تغذي المسغبة مستودع العظام و تملأ السجون .
يا درويش و فدوى طوفان
يا جبران و زياد و القاسم ،
تكون فلسطين و من أجلها تناضلون
من أجلها تستشهدون و في شعبيكم
تحذبون على جراح الإنسان المنفي في هذا العالم .
واحدة هي الرأية و جماعي هو الغضب .
أيها الشعراء الفلسطينيون يا شعراء الأرض
يا أصحاب البؤس القاتل و العذاب
في أيديكم يتحوّل الخبز أفعى
و السمك حجراً و النبع بحراً مالحاً و زعافاً
الفكرة الشجاعة بالدم تُفتدى
و توجّج السجون المشاعر الملتهبة
في اللحم الهائج ، المقهور ، المُعذب .
فلتنتصب الأقالم و لتزغرد البنادق
فالنصر آتٍ في الوقت المناسب .

الفنان الأرجنتيني ألبيرتو كورتيس

بالكلمة و الصوت و اللحن
يبحث عن الشمس في صبرا و شاتايلا

1

دير ياسين هي البداية

منذ أن قام التحالف الاستعماري الصهيوني بإقامة قاعدة (إسرائيل) على أرض فلسطين و هو يحلم بتصفية شعبها أملاً في أن تتمكن الوكالة اليهودية من القيام بدور أكثر خطورة في نهش جسد الوطن العربي و إخضاعه للمصالح الاحتكارية ، لهذا أصبح الغزو و القتل الجماعي اليومي للعرب و بخاصة الفلسطينيين منهم هواءً تنتفسه الدولة اليهودية تجنباً لاختناقها و موتها ميتة طبيعية .

و مع أن الأنظمة المحيطة بالدولة اليهودية لا تشكل عليها أي خطر - إنما على العكس من ذلك تقوم بدور المجهض للنضال الفلسطيني - فقد ظلت (إسرائيل) تتدرّع بتهديد أمنها لارتكاب المذابح التي بلغ عددها - منذ دير ياسين في 1948/3/9 حتى كفر قاسم في 1956/10/29 - عشرين مذبحه ، و كان أحدثها - و إن انتمت إلى سلسلة أخرى - في سنة 1996 مذبحه قانا لإشباع نهم المستعمرين اليهود من الجسد العربي المكبّل .

تقوم (إسرائيل) بهذه المذابح تحت رعاية غربية : بريطانيا و فرنسا في كفر قاسم و الولايات المتحدة و بريطانيا في صبرا و شاتيلا و قانا ؛ ففي سنة 1982 قدّمت واشنطن لآلة الحرب (الإسرائيلية) معونة بلغت 171 مليون دولار ، أي بمعدل عشرة أضعاف ما قدّمته لها سنة 1980 ، و تحت حماية البوارج الأمريكية قامت ثلاثة ألوية مشاة (إسرائيلية) باجتياح لبنان و تدمير مدنه و قتل أكثر من عشرين ألفاً من المواطنين العزل ، و ألقت طائراتها أطنان القنابل و المتفجرات الحارقة و جرّبت أحدث الأسلحة الأمريكية من قنابل عنقودية و أسلحة كيماوية . و بعد احتلالهم لبنان ارتكب اليهود مذبحه صبرا و شاتيلا على غرار مذبحه دير ياسين بهدف واحدٍ مشترك - مع مذبحه قبية سنة 1953 و كفر قاسم - هو ترويع الشعب الفلسطيني و إجباره على الرحيل بعيداً عن حدود وطنه الذي طرد منه ، و ليس من قبيل الصدف أن يدير المذبحتين الإرهابي مناحم بيغن زعيم الأراغون زفاني ، و من ثمة رئيس وزراء (إسرائيل) الذي يرى أن "قوة التقدّم في تاريخ العالم ليست للسلام و إنما للسيف" و هو بهذا يمثل نموذجاً للعقلية الصهيونية المتعطشة للدماء ، و بخاصة عقلية زعيمه جابوتسكي الذي أعلن في خطاب له في فيينا : "أن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً و إنما هو ملك لأجدادنا اليهود و أن التوراة و السيف أنزلا علينا من السماء" .

بهذا المزاج التفوّقي العنصريّ افتخر بيغن باقترافه لمذبحه دير ياسين و اعتبرها أساساً لقيام (إسرائيل) ، و تجاهل صبرا و شاتيلا بقوله : "إن غير يهود قتلوا غير يهود ، فماذا يعني الأمر ؟" و بهذه العقلية نفسها أيضاً قام المنتديون اليهود بإلقاء قنبلة على مظاهرة قام بها أنصار حركة السلام الآن ضد الجنرال آريل شارون قائد عملية اجتياح لبنان و المسؤول المباشر عن ارتكاب مذبحه صبرا و شاتيلا ليلة 17 - 18 / سبتمبر/ 1982 .

و بهذا الحقد الأعمى نفسه طبقت القوات (الإسرائيلية) حصارها على صبرا و شاتيلا و أدخلت إليهما الميليشيات الكتائبية المتعاونة معها بقيادة الإرهابي إلياس حبيقة و مشاركة الجنود (الإسرائيليين) ، فقامت بمطاردة أهالي المخيمين العزل داخل طوق الحصار من شارع إلى شارع و ذبحتهم بالسكاكين و الفؤوس و البلطات ، "فهشّموا رؤوس قتلى كثيرين ، و سملوا عيون آخرين و بقروا بطون الضحايا و سلخوا جلداهم و طعنوا أجساد الأطفال الرضع بالسكاكين .. كلّ شيء كان يبعث على الاعتقاد بأن عمليات التعذيب و التشويه قد سبقت القتل" ، حتى شعر بيتر هانز مدير مجلة "شتيرن الألمانية" أن الألمان قد تحرّروا من عقدة الذنب لأن (الإسرائيليين) فعلوا بالعرب في لبنان أكثر مما فعله النازي بهم" . و قد كشفت المذبحه أمام العالم عن دموية العقلية الصهيونية فأعلن بشتى الوسائل ، عن تضامنه مع الشعب الفلسطيني ، واحد من مظاهر هذا التضامن قصيدة "صبرا و شاتيلا" التي كتبها و لحنها و غناها الفنان الأرجنتيني ألبرتو كورتيس ، في رحلة البحث عن شمس المخيمين المنكوبين ، و هي رحلة لن تبلغ هدفها ما دام الوضع العربي على ما هو عليه .

2

البحث عن شمس صبرا و شاتيلا

أين كانت الشمس عندما
دقت أصداء الغيظ منطلقة من عقالها ؟
فهل أطفأتها الأشباح في صبرا و شاتيلا ؟
في صبرا و شاتيلا
أين كرامة الإنسان ؟
فهل يصبح النفاق قدراً ؟

لماذا فقد كل هذا العذاب معناه
 في صبرا و شاتيلا ؟ أين كنتُ أنا يا صديقي العزيز دون أن يؤنّبني ضميري ؟
 هل كنت أنا مع الجنود
 مدسوساً عن بعد بين صفوفهم
 مباركا اقتراف الجريمة
 في صبرا و شاتيلا ؟
 ماذا سيحكون ليقللوا من
 الإدانة التاريخية الإجماعية الكاملة ؟
 ماذا سيفعلون كي تتوقف غنغرينا
 صبرا و شاتيلا ؟
 لو بقيت متغيباً عن كوكبي
 معلقاً بالأغاني على الخبر
 فملاك الرعب سيواصل مسيرته
 في صبرا و شاتيلا .
 ربما أراد الوصول إلى بابي
 ربما أكون خلف المنعطف
 لكن الجرح مفتوح و سيظلّ مفتوحاً
 في صبرا و شاتيلا .

زيتون فلسطين عند الشاعر الإشبيلي

خوليو بيليث نوغيرا

1

نسغ الحياة في شعر خوليو

يدعو الله عز و جلّ الإنسان في قوله : "إن في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابة و تصريف الرياح و السحاب المسخر بين السماء و الأرض آيات لقوم يعقلون" ، لتأمل الطبيعة تأملاً يتجاوز مظاهرها و أثارها المائلة أمامه مثولاً مادياً ، و أن ينفذ إلى كنهها المتمثل في الحياة التي تسكنها منذ الأزل في صورة حركة الأحياء و سكون الجماد و نور النهار و حلقة الليل . و في كلمة "يعقلون" معنى استمرارية الطابع الروحي الحيّ الذي تعني حياته الموت و الولادة . و بهذا فالطبيعة لدى الإنسان العاقل تعني بالضرورة الروح و الحياة بعد أن يكون الموت قد اختفى ليفسح السبيل أمام ولادة جديدة .

و نرى في هذا الفهم للطبيعة أساساً لنجاح أيّ عمل إبداعيّ ، و هو ما نلمسه عند قراءة شعر خوليو بيليث نوغيرا Julio Velez Noguera المولود سنة 1946 في قرية مورور Moron الإشبيلية التي ما زالت تحتفظ باسمها العربي الأندلسي حتى اليوم . فالطبيعة في شعره مرادفة لمعنى الحياة التي تتبض في عروق الكائنات المادية في عصرنا و تمتد عبر التاريخ لتنبض في الذاكرة فتحيي التراث إحياءاً يشدّ الإنسان إليه بروابط الحق و الخير و الجمال .

تندرج صورة الإنسان في شعر خوليو في إطار هذا الفهم المتكامل للطبيعة ؛ فمن الطبيعة الحيّة يمكننا أن نعتبر الإنسان المتمسك بقيمه و خلقياته الإنسانية ، و ضد هذه الطبيعة يقف الأشرار الذين فقدوا القيم

الإنسانية فراحوا يدمّرونها ، بتجاوز قوانينها ، الأمر الذي جعل شاعرنا يقف ضدهم مدافعاً عن الطبيعة التي هي عنده فعلٌ للتأكيد على إنسانية البشر ورفض الجمود والسلبية والعممية :

خوان يا من رحلت عنا
و بقيت معلقاً ،
الهوة تسندك

بينما يلتصق البحر بوهد سفليّ

لئلا يكون موتك موجعاً ،

إذ أن سبع دعائم تردفك .

و بهذا المنطق يكتف خوليو لعبة "مصارعة الثيران" مع مبادئه لينصر الحياة متمثلة في الثور الذي يكون العالم عالمة على الموت متمثلاً في المصارع الذي فقد عالمة و ميرر وجوده فلفي مصرعه على يد الثور . و الحقيقة أن ذلك قلماً يحدث في هذه اللعبة ، إلا أن جدلية خوليو الشعرية تقف دائماً إلى جانب المدافعين عن الحياة ، حتى و لو أدى هذا الدفاع إلى سلب المعتدي الشرير حياته :

من كثبك بدأت

عظامك عويلها الطويل .

عواء أحمر

للثور الذي سوف يقتل المصارع .

أن تكون الطبيعة عنصراً أصيلاً في شعر خوليو ليس بالأمر المستغرب ، إذ أن الشاعر بانتمائه لحضارة البحر الأبيض المتوسط جغرافياً و حضارياً قد اندرج شعره في إطار الشعر الذي أنتجته هذه الحضارة على مرّ العصور . و هو شعرٌ للطبيعة فيه - على اختلاف مظاهرها - القدر المعلى .

فمن سمات هذا الشعر المتوسطي سمة الفلاحية إذا ما قارناه بما يمكن أن نسميه بالشعر الأطلسي (المنتمي لمنطقة المحيط الأطلسي) ذي الطابع المادي (المدني) ، المجرّد من المعنويات ؛ إذ أنه ينتمي إلى ثقافة أطلسية استعمارية حقنته بعنصري الانحلال و الفناء على عكس العناصر الكامنة في الشعر المتوسطي و هي عناصر بناءة و إنسانية . و ليس هناك أكثر إنسانية من الطبيعة التي تمثل أهم عناصره ، فالنهر لا وجود له بدون مطر و المطر لا يتكوّن بدون سحب ... و لولا الشواطئ لما كانت البحار . و هكذا يجمع الكون المتحرك دائماً بين الإنسان و بين الطبيعة : العنصران الرئيسان الموجودان في أكثر الثقافات أصالة كما هو الحال في ثقافة البحر الأبيض المتوسط و شعرها الذي يمكن أن يتمثل في شعر بدر شاكر السياب و شعر قسطنطين كفافس (اليونان) و شعر فيديريكو غرثية لوركا (إسبانيا) و شعر ثيسار بابيخو (الذي تنتمي بلاده البيرو للثقافة الإسبانية) و أيضاً بشعر أولئك الذين عايشوا ثقافة البحر الأبيض المتوسط فأوحت لهم ربّاتها بما كتبوا مثل فريديش هولدرين الألماني و لورد بايرون البريطاني الذي عاش و توفي في مدينة البندقية ، حتى لا نرانا نبالغ إذا اعتبرنا أن الشعر الروماني في القرن التاسع عشر قد نشأ على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ؛ نعم ، فقد تميّز شعر المتوسط بالدفء الإنساني و الأصالة الفنية على عكس ما هو الحال في الشعر الأطلسي الذي نعتبر من نماذج شعر ويليام توماس و شعر ليوناردو كوين (بريطانيا) ، و هو شعر بالرغم من عدم استطاعته التخلّي عن العنصر الإنساني تماماً فإن إنسانيته تأتيه عبر الانحلال و العزلة و السلبية فتتطبع بطابعها .

و نعود للرابطة التي لا تنفصل بين الإنسان و بين الطبيعة الحيّة عند خوليو متمثلة هذه المرة في أقصوصة شاعرية اللغة بعنوان "أجنحة الفراشة" . و بالرغم من شاعرية العنوان فهو اسم لمرض مستعص يصيب الأطفال ، و من أعراضه أن يظهر طفح أسفل عيني الطفل المصاب ، يأخذ شكل جناحي الفراشة ، حيث تنتهي القصة بأن ينقر الديكُ الطفلة أسفل العينين و في مكان الطفح بالذات ، فيكتسب هو المرض و تنجو الطفلة بتخلّصها من الطفح . و بهذا تقدّم الطبيعة ، عند خوليو دليلاً جديداً على تعاضدها و تكاملها مع الإنسان على طريق الخير تعاضداً يصل إلى أسمى درجات التضحية بالنفس في سبيل إنقاذ الغير ، و العكس صحيح ، عندما يضحي إنسان بنفسه في سبيل إنقاذ حيوان ؛ و في حياة الفلاحين معين لا ينضب من الأمثلة على ذلك : فالعجر مثلاً يفضلون في كثير من الأحيان الاعتناء ببعض البهائم على الاعتناء ببعض البشر ، جاعلين من اقتراب هذا أو ابتعاد ذلك عن الحياة مقياساً و سبباً للتفضيل ، و هو عمل خيرٍ ما دام يحفظ توازن الطبيعة و لا يكون دافعه اقتصادياً تفرضه المصالح الاستغلالية .

و عندما يدمّر الإنسان في شعر خوليو ذكريات الإنسان فإنه يتصرّف عندئذٍ كطبيعة عدمية ، و تقدّم لنا حياة المدن الكبرى يوماً أدلة جديدة على ذلك ، حيث يُهدم البيت الذي وضع فيه الإنسان كلّ تراثه الشعوري و النفسي الذي يصل حاضره بماضي أسلافه صلة يُعتبر وجودها أساساً لوجوده كطبيعة حية ، من أجل شق طريق تجوبه السيارات ملوثة البيئة أو من أجل بناء عمارة شاهقة تزيد من جشع مالكيها في استغلال الآخرين .

عاش خوليو بكلّ جوارحه هذه التجربة الإنسانية و كان لانتمائه الأندلسي أثر كبير في ذلك ؛ ففي قناعاته أن الأندلس في ظلّ الدولة العربية الإسلامية كانت الرسول الذي نقل البشرية من الظلمات إلى النور ، و بالتالي فهو حريص كلّ الحرص على الحفاظ على كلّ ما يمت للأندلس المسلمة بصلة : "اعتقد اعتقاداً راسخاً أنه دون هذه الحضارة الشامخة ، ما كان لاسم الأندلس أن يدخل التاريخ ، لا اليوم و لا بالأمس و لا في أي عصر من العصور . و أنا لا أكاد أتصوّر الإنسان الأندلسي بعيداً عن هذه الثقافة العربية الإسلامية ... فقد كانت الأندلس موطناً أحبه أجدادنا العرب الإسبان و أعطوه طابعه الإنساني الفريد من نوعه كنموذج حيّ للتعايش الإنساني . فشاعرنا أبو البقاء الرندي ، بعد أن سقطت إشبيلية في يد فرناندو الثالث ، في القرن الثالث عشر الميلادي تساءل : "إذا كان هناك وطن للإنسان بعد أن فقد إشبيلية" ... و نحن - أقولها بصراحة - لا نتحمل مسؤولياتنا الإنسانية و الأخلاقية تجاه هذا التراث العربي الذي هو تراثنا" .

عندما قامت السلطات البلدية في قريته بإزالة المنعطفات السبعة التي تشكل "شارع السبع عرصات" محوّلة إياه إلى شارع واحد ، مستغلة الفراغ الناجم عن عملية الهدم لإنشاء بنايات جديدة ، رأى خوليو في ذلك تمييزاً لهذا الطابع المعماري العربيّ فجاشت قريحته :

خثر الروح

و النسغ كم هو مر !

ذهبت العرصات السبع تغصّ بالأجراس لهذا العالم الضيق .

فأيّ عالم هو هذا !

اجتث الهواء المدلهم

من الذاكرة

منعطفات سبع . على أطلالها منعطف واحد قد تبقى

في سويداء القلب قد تبقى !

و أثرت إشبيلية - التي وصفها خوان سييرا بأنها فضاضة الحياة بمسال يخفق برصيد روحي و ماديّ عظيم . و كلّ ما فيها من مظاهر الفن يتسم بالأصالة و الصدق و الحب و النقاء ، و تتميّز هي عن غيرها باحتفالات الجمعة الحزينة و مهرجانات نيسان ، و يكونها اليوم غبورة على تراثها العريق ، ساهرة على كنزها الفني - في شعر خوليو تأثيرها بالأمس في شعر المعتمد بن عباد و شعر أنطونيو متشادو ، فراح يغرف من عناصرها الطبيعية : العقق و الشمس و القمح و الزيتون و الجبال و السهول و الأنهار و البحر مادته الفنية التي ارتبط فيها العقق بمعنى الأزدياء و الاحتقار لكونه يتغذى على كائنات أخرى ، فتكون حياته قائمة على موت الآخرين ؛ أما الشمس فهي دائماً رمز الحياة المتجدد :

أه أيها العقق منعم الحياة

كم هو صعب تصوّر

أن أبناء الشر يموتون

لأن النهار و النور

و حقول القمح

و إن اجتثوها لا تنتهي .

و يكون الزيتون في شعره مباركا باعتباره غذاءً مادياً و ثقافياً للإنسان يرتبط وجوداً بعملية التجديد و الولادة

كبر خوسي و أصبح رجلاً

و هو في الثانية عشرة من عمره

هذا هو عمر أشجار الزيتون

التي غرسها والده

يوم مولده

و إن ارتبطت الجبال و الشمس عند خوليو بمعنى الحرية و الخلاص حيث تتحالف مع الإنسان ضد الشر و الاستعباد فقد ارتبط البحر عنده بمعنى المغامرة و المفاجأة و الرمز للمجهول :

كنت أصطحبك إلى السلسلة الجبلية

كنت تقفز و تركض

و كانت الأشجار عليها تثمر خروباً

له طعم الدفاء و الابتسامة

و البحر كبير

رحت في بحر مريم تتحمّم

لكن البحر أصبح اليوم دماً .

... ..

خرجوا جميعاً إلى الشمس

و الأيدي مقبّدة

ثم راحوا ينشدون أنشودة الأمل التي لا تنتهي .

و قد تعدّى ارتباط خوليو بالجذور العربية حدود الانفعال بما تبقى من عمارة إسلامية في إسبانيا إلى التأثر بالتراث الأندلسي و استيعابه ، حيث يظهر في شعره بوضوح الإحساس بكثافة الخرجة العربية و الاستفادة من دقة الألفاظ في التعبير عما في الأبيات الثلاثة الأولى (المتحدثة عن العقق في مقطع سابق) التي تنتهي بالكلمات : morir و concebir و vivir . و لا يكفّ خوليو في كتاباته و نشاطاته الفكرية عن ذكر شعار قريته المتمثل في "الجواد العربي الأبيض" الذي فرّ ذات ليلة من القرية أثناء عسكرة فرناندو الثالث ملك قشتالة بجيشه على مدخلها المتمثل في ممر بين جبلين ؛ فلما مرّ الجواد الجموح بالمدخل ، تردّد رجع الصوت ، فتخيّل الجيش الغازي أن جيشاً من الفرسان العرب قد باغته أثناء الليل ، فذبّ الذعر بين جنوده و شدّ الرحال إلى بلاده خائباً .

و ربما كان إحساس خوليو ببليث المترسّب في اللاشعور بأن غياب شمس العرب عن الأندلس كان تغيباً للحق و الخير و الجمال هو الذي جعله يتخذ عنواناً لأحد دواوينه من شخصية القس الطروادي "لاوكونتي" الذي حذّر أهل طروادة من السماح للحصان الخشبي بدخول المدينة خشية أن يكون بداخله جنود عوليس ، فلم يعره أحد انتباهها و اقتصت منه آلهة أثينا بأن أرسلت إليه ثعبانين كبيرين قتلاه و قتلا أبناءه أثناء تأديتهم الصلاة .

كما يتكشف الحضور الثقافي العربي بمعناه الإنساني الواسع في وجدان خوليو من خلال انتماء هذا الشاعر إلى وطنه الأندلس الذي استطاع أبناؤه العرب المسلمون ، عبر ثمانية قرون ، تقديم أعظم تجربة إنسانية في بناء الحضارة بروح من التسامح الفكري و الاحترام الكامل لمكونات الإنسان العقائدية و التراثية و الثقافية .

كما أدى هذا الحضور دوراً هاماً في تطوير مفهوم الشعر عند خوليو ببليث حتى تميّز شعره بخصائص يسهل على قرائه التعرف عليها مسبقاً في أيّ من قصائده حتى و لو لم تحمل توقيعها ؛ فقد تميّز شعره بدقة انتقاء المفردة ذات المغزى الذي يساعد على رسم الصورة الشعرية التي تبوح للقارئ المدقق بأسرار الطبيعة و تكبح جماح ذلك النهر المتدفق من التضامن الإنساني الذي يجيش في نفس الشاعر ، فالمفردة عند خوليو رقيقة في طبيعتها ، سهلة في تركيبها ، وثيقة الصلة بسياق النص ، تتسلل إلى نفس القارئ تسلسل "النسمة التي تنقب الضباب و تجرح الجبل لتلّين الجو و تخصب الأحراش" . و ربما يكون الدكتور خوليو ببليث (الناقد المعروف و أستاذ الأدب الإسباني بجامعة سلمنقة) قد اكتسب هذه التجربة من تتلمذه على شعر نيسار بايخو الذي كرّس جهده لدراسته و تحليله ، فتعلم منه كيف يقتل الخصم بالمحبة الإنسانية و التسامح ، و يقاوم الأعداء بالإخوة و الرحمة ، إلى أن توفاه الله في Dax - France غريباً عن وطنه في 1992/12/24 .

و هكذا تمكّن خوليو بأغاني الأنهار و بالنور الذي غالبه النعاس و الخواطر التي تتوارد على وسائد ازدانت بجذور الأحلام من ثقب ضباب الظلم و تعرية سلاسل القهر و فتح الطريق أمام شمس الحياة لتحرق أوراق الخريف و تقارع الموت و الفزع ، حتى يولد الفجر و يصبح الصراخ شرعاً ينبّه الضمير البشري إلى خطورة العواصف الغربية التي تجتاح "زيتونة كنعان" إنساناً و فكراً و تراباً .

2 زيتونة كنعان

علت الشجرة

بسيماتها كموجة بحرية

فاهتز الزيتون كنجوم

و الأغصان كحراشف أسماك

أخذتها المفاجأة .

و كان المظهر

عمارة خضراء عصفت بها الريح
تلوح للمشردّين بالكارثة
و كان المظهر
جناحاً بلا روح يطير نحو فلسطين
و ما استطاع اليراع من بعد تفنيق الدّجى
ذرف نسغ الزيتون المرّ و القمح
كرذاذ دمع
على الجبال .
و كان المظهر أن هدهدت الأحلام الربى
و الحراس .
كان الإنسان هو الكلمة
بل كان الدم و كانت اللغة
شيئاً واحداً :
نبض إخطبوط يطعن بالحربة .
اهتزاز الجذور وحده
يمدّ شجرة الزيتون بالحياة .

3 مروج إشبيلية

ملأت النغمة الوادي
تخثرت كالندى على الأرض
و أصقعت : حمص في زهر بكر .
تنمو و تزهر و تموت .
ترعى الطلغ : زهر الشتاء .
تتجمد و تغزو و تخضر ،
تدفع قبة السماء و تضربها .
تنتائر !
تقبّل شفّتيك يا حبيبي .
و بتقبيل شفّتيك
تقبّل قلب العالم المنسيّ .

لي قلب و لك قلب
لنقل كالنهار المتمرد
كالطوق الجبار
لي قلب و لك قلب
يسنّ السيف
ينفتح كبرعم إخصاب
و عندما يروى لبابه
سنفدّ هذا العالم .

أنت هنا و أنا

على شفا البهجة نفسه .
نحسّ بالنواقد تفتح .
الأركان تغرق .
أنا الآن هنا و أنت
مع الحياة بيدك تشرب المطر
كهاجس حرية .
هكذا أحسّ بك و تحسّ بي
في دقائق قلب كالشبح
كحبّ ممنوع
كقوس المنعطفات
لنجعل الثورة تدقّ في الرُّوح دقائقها !

في سرّة الوادي
حيث أضواء النهار الأولى
لها هواجس المساء .
من النور المختر
تهبّ نسمة
تفوق الوصف
تجرح الجبال .
الضوء يتقبّ الضباب
و يثقّ سيفه
و طفل الشمس
حرّ من كلّ وثاق
يقطع السلاسل
يحطّم القضبان
يلين الأرض .
يظهر التلم .
يخصب الأحرّاش
إنه النور سيد الطبيعة .

إنه النور سيّد الطبيعة
يحتضن سقوف الحقول الأخضر .
يروح الصباح مفتحاً أزهاره
و صوت الإنسان يفرّخ في ألف حنجرة
من صمتٍ ثم ينتصب .
لأنّ فال الأشجار المائسة هذا
هو الذي ينفخ في النايّات
و السيقان الفارغة
آيات عصر
في النور كامنة .

آيات عصر
كامنة في نور غالبه النعاس

عند سفح الجبل
و على الماء الذي
ينساب و ينزلق
و ينزل و يصل
فيظفر بالزهرة حتى الساق .
في النهاية تنمو !
تفتق الأرض
و تزهر الألوان .
حينئذ يولد الإنسان
و الحضور الكامل للحياة
التي تواردت هو اجسها
على وسائل الشتاء المزدانة
بجذور الأحلام
وحدها .

بجذور الأحلام
و غياب الشفق الحبيب المتدفق .
خطار الصباح شمس معلقة
على القمة .
إن كان الصباح بداية
فالمساء وحده ابتهاج
و ثمر متفتح
و مهرجان أنعام شعبيّ .
الأرض ناضجة .
الصراخ : الشرع

الصراخ : شرع
البرهان المُطعم
في الخفاء
على انفراد .
تداعبه الحشائش
النامية .
معلق على قضبان النوافذ
بين ظفائر الأشجار
و في كهوف الخنزير البري
ضد طقوس الشمس و القمر
حارقاً أوراق الأشجار المتساقطة
محادثاً الموت و الفزع .
تغنيه الأنهار و الزوارق
منسوج في المهاريق المخبأة
بين الرياح المطرزة
على لحف الجاموس
ثبعده الضباب و تطرده
العصافير
إنها في نهاية المطاف

الطبيعة الزاهية
كامرأة متبرجة .

كامرأة متبرجة
رائعة
و يصبح الإنسان
بالتدريج
سيّد نفسه .
يتسلل سعيداً
فتقلد الطبيعة سلوكه
و بيده يبني كيانه

بيده يبني كيانه
من نسغ الأشياء
تولد حيوانات فيعطيها أسماءها .
و تصبح فريسته
أكثر ضماناً .
يجتاز البحار بفلك .
و يشرب الماء
و يقلب السماوات
فتزهر الأرض بأكملها .

تزهّر الأرض بأكملها
بينما الإنسان ، يبذوره
يعمر المروج
و ينبت الجبال .
يهذب الحجارة
و الحصى .
ثم يطوي الرياح
و يخترقها بأنصاف كرياتها .
يوقظ عناقيد العنب
التي تفقد وزنها
عندما يدوسها .
يعجن الوحل .
يصوغه و يخلطه .
يسويّه و يلتقطه بينانه .
يخمّر الخمر .
يحيلها كحولا .
هذا فتيل
و الإنسان ضد الإنسان
يضررم ناراً .

يضررم ناراً
و الشمس في الوديان
فتهرب الزرازير
و الخنازير البرية
أفواجاً
حانقة الصدور
و الأيل مُطارداً لمسافات طويلة .
أيلٌ أسمر و سنونو و أسماك
و كركدن .
و تماسيح و نسور و حيات .
أسماك نهريّة و نسور و حيات .
أسماك نهريّة ذات جلد و ضياء
و سلاحف و هداهد و نعاج
و نمور بلمعان و ضياء
تهرب أفواجاً
أمام البخار الذي
يثير تحت سطح الماء موجات
و يخلق تموجات .
يؤخر البحر أمام هبوب الرياح
هدوءه .
يظلّ الإنسان وحده يعاني .

يظلّ الإنسان وحده يعاني
رأسه مملوءة بالأحلام :
في سرّة الوادي
حيث أضواء النهار الأولى
لها هواجس المساء .

كنتُ ذات ليلة أتمشى
وحيداً
في الحقول و في العرق .
في شوارع مالاسانيا
الملهبة للحنين
شارد الذهن في الصرخة السوداء
التي انتزعها وطني الأندلس من أعماقه
و في المصائب المقتترنة بسواد قلوب
المتسلطين على الشعوب الحزينة
و في بؤس موروث
لعصافير تعيش
بلا قنن .
وحيداً كنت ذات ليلة
أتمشى .
أتأمل جسمي
يضطرب

- بعيداً عن الاشتياق لبحر التخوم .
يبدو مرسوماً بلون
الغضب الأحمر
حدوده كشعلة الرعاة
تكاد على الدوام
تكون رمز سلام
حينئذٍ جاش أمامي
صوتٌ قديم لإنسان
بعيون حيوان
مطروح في سلام الشمس
كطفل يلهو بدميته
بين خطواتي
مفاجئاً الزمان و كنز المفاجآت .
كنز أن نكون أحياءاً ،
و إن فرش الموت
أجنحته السوداء
كمحارب قبل بدء المعركة قد هُزم .
حدثني
حديث الجبال القديمة
للريح ،
فعرفت منذ تلك الليلة
أن الشعوب كالغاب
تحفظ أغانيها
كما لو كانت
عصافير توشك أن
تحلق تحليفاً أبدياً
نحو عوالم جديدة
حرّة
كطقوس ألعاب الأطفال .

فهرس

- فلسطين القضية و الحضور 5
الشاعر التشيلي محفوظ مصيص عبير فلسطين في أمريكا اللاتينية 13
محفوظ الشاعر المبدع 15
فلسطين في القلب 18
مع الشاعر الكولمبي داسو سالدبيار في رحلته من أوروك إلى فلسطين 25
27 داسو صانع الحياة
29 وحوش الألم
33 الشاعر الطليطلي خواكين دي لوкас بين أريحا و بيت لحم تائهاً يجيش بالبكاء
35 خواكين شاعر الفن للحياة
38 أسوار القدس
39 البحث عن أريحا
41 على ضفاف نهر الشريعة

43	الخيار الفلسطيني عند الشاعر الأرجنتيني خوليو هواسي
45	خوليو فارس الكلمة الجموح
48	فلسطينيون
50	نداء الوطن
52	النصر لنا
55	أنطونيو مورينو من عذابات إسبانيا يغني فلسطين
57	أنطونيو شاعر العذاب الانساني
60	اغنية إلى فلسطين
63	الشاعر الأندلسي كارلوس الباريث على موعد مع القدس
65	كارلوس شاعر الزمن المدلهم
68	أخي الفلسطيني
70	حكاية في ثلاث مدن
73	الكلمة الفلسطينية المقاومة في شعر خابير بيان
75	خابير الشاعر المجدد
85	نشيد الختام
	الفنان الأرجنتيني البرتو كورتيس بالكلمة و اللحن و الصوت يبحث عن
89	الشمس في صبرا و شاتيلا
91	دير ياسين هي البداية
94	البحث عن شمس صبرا و شاتيلا
97	زيتون فلسطين عند الشاعر الإشبيلي خوليو بيليث نوغيرا
99	نسغ الحياة في شعر خوليو
109	زيتونة كنعان
115	مروج اشبيلية
121	فهرست

- [1] ادوارد سعيد : الاستشراق ن عن مجلة المؤرخ العربي ، عدد 14 ، صفحة 356 ، بغداد 1980 .
- [2] انظر كتابنا: " إرنستو كاردينال شاعر الثورة الساندينية... "، الصادر عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1986.